شذرات فكرية

عبدالأمير منصور الجمري

مدَّونة من شذرات فكرية كتبها المرحوم العلامة الشيخ عبدالأمير الجمري في 1960 م (1380هـ) عندما كان عمره 22 سنة.

المؤلف: عبدالأمير منصور الجمري
الطبعة الأولى 2017

المقدِّمة

تُشـكِّل هـذه الشـذرات التـي هـي شـكل مـن أشـكال المدوَّنـات، أسساً وأفكاراً أوليّة، ربما للاشتغال عليها مستقبلاً، ولم يتح الوقت للعمـل عليهـا. هـي محـاور لموضوعـات فـي الطريـق إلـى التنـاول أو تـم تناولهـا مـن قبـل الراحـل العلامـة الشـيخ عبدالأميـر الجمـري، فـي مجالـس الخطابـة الحسـينية فـي البحريـن. كان وقتهـا (العـام 1960 م) فـي الثانيـة والعشـرين مـن عمـره، أي قبـل نحـو سـتة عقـود، وكان وقتها يتلقى الدروس الدينية على يد عدد من كبار رجال الدِّين في البحريـن، قبـل أن يشـدَّ رحالـه إلـى مدينـة النجـف الأشـرف؛ لـذا يجـب أن تقـرأ هـذه الشـذرات، أو موضوعـات المدوَّنة ضمن سياقها الزمني، مع ملاحظـة أنهـا تعتمـد فـي جانـب منهـا، وخصوصـاً فـي الاستشـهادات علـى الذاكـرة او مـا كان يتوفـر مـن مصـادر حينـذاك.

الموضوعـات التـي تحويهـا الشـذرات، أو المدوَّنـة، متنوعـة، وتـم طرحهـا ومعالجـة جوانـب منهـا بـروح تناسـب فترتهـا الزمنيـة، مسـتوعبة لجوانـب المتغيـرات مـن حولهـا؛ ولـم تستسـلم فـي أسـلوبها إلـى اللغـة الجامـدة بقوالبهـا التقليديـة والصارمـة التـي عُـرف بهـا طلبـة العلـوم الدينيـة وقتهـا.

قـراءة هـذه الشـذرات تسـهم فـي فهـم منطلقـات مسـيرة الشـيخ الجمـري التـي بـدأت فـي البـروز علـى السـاحة العامـة منـذ مطلـع السـبعينات مـن القـرن العشـرين، وحتـى وفاتـه فـي نهايـة العـام 2006. والله ولـي التوفيـق.

مايو 2017م - شعبان 1438هـ

الوطن عند محمد (ص)

قال سيدنا رسول الله محمد (ص): «إن قوما ركبوا البحر في سفينة فاقتسموا فأصاب كل رجل مكاناً، فأخذ رجل منهم الفأس فنقر مكانه فقالوا: ما تصنع؟ قال: مكاني أصنع به ما شئت. فإن أخذوا على يديه نجوا ونجا وإن تركوه غرقوا وغرق، فخذوا على أيدي سفهائكم قبل أن تهلكوا».

أتريد مثلاً يصور لك الحالة الشخصية والاجتماعية أرضى من هذا المثل؟

شبه عليه السلام الوطن بسفينة والعالم بالبحر، وشبه أبناء الوطن بركّاب السفينة إن حدث في السفينة خطر عمَّ جميع الركاب. ثم مثل الخائن المجرم أو بوصف عام، صاحب المنكر لوصفه من ثلم السفينة. فإن تركوه وما يريد غرق وغرقوا.

هكذا المجتمع أو الأمة أو ابناء الوطن إن أخذوا على يد صاحب المنكر ووقفوا صفاً معارضاً في وجهه اضطر لترك المنكر، فنجا ونجوا، وإن تركوه وأعطوه الحرية فيما يريد أو - كما يلاحظ في الحاضر - قابلوه بالبشرى والترحيب وأعطوه نشاطاً يستمر في المنكر، حصل الخسران له ولهم وعمَّ البلاء الجميع في الحاضر والمستقبل والدنيا والآخرة.

الحرية عند علي (ع)

قال أمير المؤمنين عليه السلام:«لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً».

إذا نظرت إلى هؤلاء الناس وجدتهم موحدين بالقول لا بالفعل وبالألسن لا بالقلوب. إنهم يعبدون بدلاً من الاله الواحد آلهة متعددة، فالشيطان معبود بالطاعة، والنفس معبودة بتنفيذ الأوامر، والشهوة معبودة بالاستجابة لها وتحقيق مطالبها.

فسيد المتكلمين والمرشد الاعظم يخاطب شعور الاخيار وينادي الإنسانية في كل زمان ومكان بالتحرر من هذه المعبودات المضرّة والتخلص من هذا الشرك الخفي والإنصاف بالتوحيد، الذي يجعل الحي حياً والإنسان إنساناً.

لا تكن عبد غيرك - ذو ثروة، شهوه، نفس، شيطان، ناطق يدعو لغير الله، عصبية تؤدي إلى الباطل، عاطفة تفقد صاحبها المعنوية، وقد جعلك الله بما خططه لك سفراء السماء وأرشدوك إليه من أخلاق وآداب، وسماح وتواضع وإنصاف وعلْم بأفضل الصفات – كن حراً.

هذا هي الحرية التي يريدها علي (ع) في الناس ويطالبهم بتطبيقها. من المؤسف جداً أن الحرية في هذا الزمان أصبحت تعرّف إلى غير وجهها وتستعمل في غير معناها، حتى ثار كثير وكثير. من الناس يستبيحون لأجلها الحلال والحرام، ويستعملون المعروف والمنكر. ويردد صوت الجمع: نحن أحرار. ويتشدق الفرد: أنا حر. ولست مبالغاً إذا قلت عن هذا الوضع السيء:

لطالما زعموا تحرير أنفسهم
من الجمود فعادوا عكس أحرار

أخي القارئ: الحرية غاية الغايات وجوهر الحياة، ولكن لها حدود يجب على الفرد أن لا يجتازها، ألا ترى أن الناس إذا أعطوا الحرية الكاملة استعبد بعضهم بعضا؟

ان الشرع الإلهي يبيح الحرية ولكنه يحرمها إذا أدت إلى ظلم الغير، وإن القتل للغير يجبُّ الحرية ومنه يحرم الاستبداد، وإن واجب الحياة يدعو للحرية ولكنه ينهى عن الفوضوية.

لقد بحث العلماء الحرية وتكلموا عنها كثيراً كل بوجهته، وكل بذوقه، تكلم عنها علماء النفس، وعلماء الاجتماع، وعلماء السياسة، وعلماء الطبيعة، وعلماء الأدب، وغيرهم، حتى طمسوا معناها وأضلونا الطريق إليها، لكن عظيماً في هذه الدنيا هو أعظم من فيها، سيداً في هذا العالم هو الوحيد الذي ضرب للحرية مثلاً بحيث لا يصلح لأي واحد منا أن يجهلها، لا يسوغ لأي فرد من الناس مهما بلغ من التفكير والعبقرية أن لا يقيد الحرية بذلك المعنى الذي قيدها به ذلك العظيم.

الاشتراك في الخطيئة

قال بعض العلماء: «قد ثبت بالدليل العقلي والسمعي أن الراضي بفعل المحسن شريك له في إحسانه والراضي بفعل المسيء شريك له في إسائته من جهة الندم والمدح والأجر والأثم». وقد ذم الله تعالى في كتابه من كان من اليهود في عصر نبيه (ص) بإضافة قتل أنبيائه إليهم وإن كان المباشر لذلك من تقدم من آبائهم لرضاهم به وموافقتهم اياهم في دينونتهم وما ظلموا فيه وكفروا بفعله وتمارضوا بارتكابه.

قال رسول الله (ص): «إذا عملت الخطيئة في أرض فمن أنكرها كان كمن غاب عنها ومن رضيها كان كمن شهدها».

إذا شئت معرفة السر في التردد على المعاصي وتفشي الفساد والفتنة في كل مكان فاعلم أنه عدم الإنكار والمعارضة. وإذا أردت معرفة السر في ذلك التسامح العظيم في الأمر، فاعلم أن عدم رسوخ العقيدة في النفوس وثبات الدين في الضمائر. لذلك صار المسلمون – الا من شذ وندر - يؤثر الراحة وتحسين العلاقة الدنيوية مع أهل القبائح والمنكر بكتمان الحق ومخالفة قانون الصراحة ووضع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت الاقدام

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقِّع

نعم والله إننا بتلك السيرة نخسر الدنيا والآخرة. ولو كان للعقيدة رسوخ في القلوب لتكيفت الحياة بعكس الواقع، أما ترى رجل العقيدة الثابت وصاحب الإرادة الصادق كيف ترك الحياة وزهرتها

وضحى بالنفس والنفيس رفعاً للمنكر ونشراً للمعروف وتطبيقاً لقانون الإصلاح حتى وقف موقفاً ما وقفه أحد في هذا العالم ولسان الواقع ينطلق كما قال الشاعر:

إن كان دين محمد لم يستقم
إلا بقتلي يا سيوف خذيني

الراسخون في العلم

في الحديث القدسي: «عبدي اطعني اجعلك مثلي أقول للشيء كن فيكون وتقول له كن فيكون».

للمؤمن مقام كبير ومرتبة سامية عند خالق الأرض والسماء، يقرر هذا ويؤيده العقل الصحيح والذوق السليم. مرتبة المؤمن عند ربه تصوره كلمات الرسول وأهل بيته عليهم السلام منها: النظر إلى وجه المؤمن عبادة. والمراد به الناطق بالصدق والعامل بالحق. ومنها قوله (ص): المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف - أي ذلك ليس بمؤمن لأن المؤمن لا يمكن أن لا خير يكون فيه؟

منها: الدنيا حظوة رجل مؤمن. وهذا ما جرى لكثير من المؤمنين الخلّص في التاريخ وجاءت فيه قضايا كثيرة. وبنظرية ثانية أن الايمان يشتمل على علوم كثيرة وأسرار راقية من اتصل بها وطبقها استطاع قطع المسافات البعيدة في المدة القصيرة.

صادفت هذه الأقوال والإرشادات عقولاً تعي وتفهم وتطبّق وتجرّب.

أخـي، أنـت لا تجهـل أن الإيمـان مراتـب ودرجـات بعضهـا أرفـع مـن بعـض، فالذيـن حلقـوا فـي سـماء الإيمـان ببلوغهـا أرفـع مرتبـة، فيهـم مـن الأسـرار مـا ليـس فـي غيرهـم، ولهـم مـن النفـوذ والتصـرف فـي الكـون ونواميسـه - إذ الكـون مسـخر لهـم - مـا ليـس لغيرهـم.

فالفـرد منهـم إذا ألقـى كلمـة أخـذت مكانهـا مـن كل قلـب وعاهـا وسـمع وأصغـى إليهـا وخلـدت بخلـود الزمـان. وإذا أطلـق صوتـاً سـمعه المخاطـب بـه حتـى ولـو كان منفصلاً عـن هـذه الحيـاة بالمـوت. لأن ذلـك الفـرد أسـمى مـن الفنـاء وأرقـى مـن المـوت، وإن قتـل ذلـك الفـرد ووزعـت أعضـاؤه فإنـه لـن ينفـك عـن أداء مـا يريـد إلـى العالـم لا يعجـز عـن القيـام بواجبـه القتلـى لأنـه أرقـى مـن القتـل، فـكل عضـو مـن أعضائـه. يقـوم مسـتقبلاً بـأداء الواجـب.

أتـدري مـن هـؤلاء مـن النـاس؟ أتعـرف لمـن هـذا الصفـات المدهشـة التـي يندهـش لهـا العاقـل، وينكرهـا السـخيف؟ إن هـؤلاء الذيـن يصفهـم الكتـاب العزيـز بقولـه تعالـى: والراسـخون فـي العلـم.

تقديم من لا فضيلة له

«يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون». صدق الله العظيم. النور لا يحتاج لمن يقول عنه إنه نور. والظلمة مهما أشبع عليها من أضواء مصطنعة تبقى ظلمة.

الحقيقة لا تخفى وإن خفيت فلزمن فقط، والجهود مهما كانت جبارة والمساعي مهما كانت كثيرة لإخفاء الحقيقة والكذب على الواقع لا يمكن أن تصل إلى نتيجة سوى: «ويأبى الله إلا أن يتم نوره».

أخي، بالله أقسم أن الفضيلة ليس لها صديق، أعني صاحب الفضيلة ليس له محب. صاحب الفضيلة منبوذ في حياته، ثقيل على النفوس لأنها طبقت على الظلم بجميع فنونه:

الظلم من شبه النفوس فإن تجد
ذا غفلة فلعلة لا يظلم

يقدم الناس من لا فضيلة له ولا كفاءة. أيجهلونه إذ قدموه؟ كلا بل كرهاً لصاحب الفضيلة وغضباً منه، لأنهم لا يريدون منها له ولا يريدونه لها قال الشاعر:

إن الفضيلة في الورى مظلومة
اعداؤها الإعراض والإنكار
لكن أقطاراً تهيئ قبرها
وترى الصلاح بتركها أقطار

نعم يذكر الفاضل وتقدّر شخصية ويلتفت إلى قيمته في الحياة بعد موته، بعد أن يغيب عن الأعين كما قال الشاعر:

تـرى الفتـى يكتـم فضـل الفتـى
مـا دام حيـاً فـإذا مـا ذهـبْ
جـدَّ بـه الحـرص إلـى نكتـه
يكتبهـا عنـه بمـاء الذهـبْ

وقال الاخر:

سـتذكرني قومـي إذا جـدَّ جدّهـم
وفـي الليلـة الظلمـاء يفتقـد البـدر

الخليل بن أحمد الفراهيدي

أظنك تعرف الخليل بن أحمد الفراهيدي، النحوي البصري المتوفى سنة 170 هجرية الذي وسع في النحو، وأضاف إلى قواعده الشيء الكثير، وجمع بين المعقول والمنقول، وألّف كتاب "معجم العين" الذي ما ابتكرت الدنيا حتى الآن مثله.

وهو الذي وضع علم العروض وهو أوزان الشعر، حيث دخل إلى سوق الحدادين فسمع دق المطارق ووضع منها علم العروض بعد أن خرج، فترك لكل نوع من الشعر وزناً واسماً. لكن في حياته لم يذكر بخير ولم تعط شخصيته المعظمة بعض ما تستحق من الإكبار. أولاً لأنه فاضلٍ وما من شيء حورب في البشر من قبل جميع البشر حربا متواصلاً كالفضيلة في كل مكان وزمان.

يقول بعضهم: رأيت الخليل بن أحمد في خص من أخصاص البصرة يطلب الكسرة من الخبز فلا يجدها ورأيت كثيراً من الناس يجمعون الذهب والفضة ويعيشون بعلومه.

نعم لما مات ذكروه وأكرموه وقّرظوه، وليس لهم فضلا بذلك لأن الفضيلة لابد وأن تظهر.

من عرفني فقد عرفني

ان العاقل الذي يحسب الذكر وطيب السمعة لا يحارب أهل الفضائل.. أما قرأت في التاريخ كيف عملت باخلاص واشتغلت بشدة وصدق الأقدام والأيدي والألسن والمنابر والسيوف والسجون والمشانق في إخفاء اسم أبي تراب؟

إن اللبيب من أي أمة لابد أن يتفكّر ويحكّم رأيه في هذا الرجل الذي ملأ الصدور وأشغل الالسن والذي ليس في وجه الناس سواه، من هو، وكيف، هو، لابد أن عظيم وله حياة جديرة بالدراسة والتنقيب.

سمع أحدهم شخصاً ينال من على بن أبي طالب عليه السلام فقال له: يا بني إنك لا تنقصه فإن دولة تنقصّته ثمانين عاماً فلم يزده الله بذلك إلا رفعة، إن الدّين لم يبنِ شيئاً فهدمته الدنيا، وإن الدنيا لم تبنِ شيئا إلا رجعت على ما بنت فهدمته.

أتريد أن تعرف لمن العاقبة؟ اقرأ قوله تعالى: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين. أتسأل ما هي العاقبة انظر بعينك واسمع بأذنك إلى هذا التاريخ المثمر والحياة المعظمة.. إننا لا نريك عاقبة علي بعقولنا القاصرة فنفهمها بجميع معانيها ولكن نقول: منها هذا الذكر الجميل الخالد.. منها هذه الجلالة والقداسة والهيبة والسلطة لبقعة دفن فيها جثمانه الطاهر، يأتيها الزوار كالسيول المتدفقة. منها أن يصعد زين العابدين مع ما هو فيه من المرض والأسْر والقيد على منبر يزيد - ويالها من أعجوبة - فيقول: من عرفني فقد عرفني.

لا تحرِّموا طيبات ما أحلَّ الله لكم

قال الله تعالى:« يا أيها الذين آمنوا لا تحِّرموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيّباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون. صدق الله العظيم

تمتاز الشريعة الاسلامية من بين جميع الشرائع السماوية، بسلوك الطريقة الوسطى، وخير الأمور أوسطها، وهو العدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، فالإسلام لا يأمر أن يحرم المرء نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسمية ما دام يتناولها من طريقها الشرعي.

فهو يبيح لمتّبعيه التجمّل بأنواع الزينة والتوسع بالتمتع بالمشتهيات والملذات المشروعة على شرط الاعتدال قال تعالى: "يا بني أدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين".

بل إننا نلاحظ أن أكثر الآيات القرآنية التي تحض على المنزلة الروحية والعمل الأخروي مقرونة بالحض على نيل مكانة مادية ومرتبة دنيوية قال تعال: "واتّبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك".

والإسلام حين يسلك هذا الطريق العادل لا يقول بأن الدنيا والآخرة سواء، كلا إنه يرجّح الآخرة على الدنيا ويعيد بأنها خير من الدنيا، ويؤكد بأن الكمال الروحي هو الغاية التي يجب أن يتجه إليها المسلم.

لكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الإسلام مبنياً على قواعد

العلـم ونواميـس الطبيعـة. فقـد قـرر العلـم قديمـاً وحديثـاً أن العقـل السـليم لـن يكـون إلا فـي الجسـم السـليم، وأن سـمو الـروح لا يحصـل مـن حرمـان الجسـد مـن حاجاتـه اللازمـة.

فـي الآيـة الكريمـة التـي بدأنـا بهـا البحـث سـمى اللـه تعالـى حرمـان النفـس ممـا أحلّـه اللـه لهـا اعتـداء، أي خروجـاً عـن طريـق العـدل بيـن الطبيعتيـن الروحيـة والماديـة، الدنيويـة والأخرويـة، قـال اللـه تعالـى "ولا تعتـدوا إن اللـه لا يحـب المعتديـن".

لا رهبانية في الاسلام

امتـاز الإسـلام كمـا ذكرنـا عـن جميـع الأديـان المعروفـة، وارتفـع مسـتوى الأمـة الإسـلامية عـن الأمـم السـابقة - الذيـن كانـوا يترهبـون فـي الجبـال ويعبـدون اللـه تعالـى ويسـيحون فـي الأرض، وكان بعضهـم يخفـي نفسـه حتـى يقطـع داعـي الشـهوة. رهبانيـة غلـوا فيهـا، وقيـود كبلـوا انفسـهم بهـا، لـم يفـرض اللـه ذلـك عليهـم قـال تعالـى "ورهبانيـة ابتدعوهـا مـا كتبناهـا عليهـم إلا ابتغـاء رضـوان اللـه فمـا رعوهـا حـق رعايتهـا".

أمـا الإسـلام فإنـه لا يريـد الرهبانيـة ولا الانـزواء ولا حيـاة العزوبـة، ومـا هـي فائـدة المجتمـع مـن الترهّـب الـذي يجعـل الصالحيـن مـن عبـاد اللـه تعالـى لا يهتمـون إلا بنجاتهـم فيتـرددون علـى كهـوف وصوامـع وينتقـل زمـام أمـر العالـم إلـى مـن لا هـمّ لهـم إلا الفسـاد فـي الأرض وتحقيـق الشـهوات النفسـية.

أراد قـوم مـن الصحابـة لشـدة خوفهـم مـن اللـه وإقبالهـم علـى الآخـرة

- بغضّ النظر عن الصادق منهم والمتصنّع - أن يميلوا إلى ما لم يأتِ به الإسلام ولا يريده للمسلم فاعتزموا واتفقوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفُرُش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض. فجاءت إمرأة أحد الصحابة يوما إلى بيت النبي (ص)، فقال بعد ان عرفها: هذه امرأة فلان؟ فقالت له زوجته: نعم يا رسول الله، لكن زوجها فارقها إلى بعض الجبال للعبادة، ومن أجل هذا لم تمس امراته الطيب مدة ولم تلبس الفاخر من ثيابها.

فلما سمع النبي ذلك خرج غضباناً يجر طرف ردائه على الأرض فرقى المنبر واجتمع الناس وأمر بإحضار الصحابي على طريق السرعة فأحضر من الجبل الذي هو فيه، فخطب النبي (ص) فأبلغ في الخطبة وقال «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً، فإنه ليس في ديني ترك اللحم ولا النساء ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع.. أتريدون ديناً خيراً من ديني وسنة أهدى من سنتي والله لو كان أخي موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي، انظروا إلى ما افعل فإنني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأنكح النساء وأكل وأشرب».

ثـم التفـت (ص) إلـى الصحابـي وقـال لـه: إن اللـه غنـي عـن ثيابـك هـذه الخشـنة فقـم وانزعها وأفصـل علـى أهلـك وخالطهـم واكتسـب لهـم..

ونـادى الرسـول (ص) مـراراً وتكـراراً: "لارهبانيـة فـي الإسـلام" فالاسـلام ليـس هـو ديـن الرهبانيـة، ولا هـو بالديـن الجاهلـي الـذي لا يعـرف وسـيلة ولا ملجـأ الا الخيـل والليـل، والسـيف والرمـح، والسـلب والنهـب. ولكنـه ديـن مزيـج مـن رهبانيـة حـق ومـن بسـالة حـق.

لذلـك فـإن الذيـن مثلـوا الإسـلام وطبقـوا أوامـره صـدق تطبيـق يلبسـون لـكل زمـان لبوسـه فمنهـم مـن يظهـر بالقـوة ومنهـم بالرفـق واللطـف منهـم مـن يقـول: «ألا وإن ما تكرهـون فـي الجماعـة خيـراً ممـا تحبـون فـي الفرقـة» جامعـاً بذلـك كلمـة الأمـة وحاقنـا دماءهـا، وإلـى جانبـه، وبعـده بـلا فاصـل مـن يقـول: «واللـه لا أعطـي بيـدي إعطـاء الذليـل ولا أفـر فـرار العبيـد».

ويقـف فـي حومـة الميـدان مقحمـاً نفسـه إلـى السـيوف والرمـاح قائـلاً:

إن كان ديـن محمـد لـم يسـتقم
إلـى بقتلـي يـا سـيوف خذينـي

قـال اللـه تعالـى: "إن هـذا القـرآن يهـدي للتـي هـي أقـوم ويبشّـر المؤمنيـن الذيـن يعملـون الصالحـات أن لهـم أجـراً كبيـراً" صـدق اللـه العظيـم.

من عمل به سبق

قال أمير المؤمنين وسيد الموّحدين: «عليكم بكتاب الله فإنه الحبل المتين والنور المبين والشفاء النافع والري الناقع والعصمة للمستمسك والنجاة للمتعلق، لا يعوجّ فيُقام ولا يزيغ فيستعتب ولا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع من قال به صدق ومن عمل به سبق».

«من عمل به سبق»، نعم صدق علي، من عمل لا من ادّعى العمل به فإن الضال المتخبّط في الظلمات يدّعي العمل بالقرآن كما يدّعي الرشيد السالك طريق الحق. فعلماء الضلال وشيوخ السوء الذين يكَفّرون المسلمين ويحلّون إراقة دم المسلم وانتهاك حرمته، يدّعون العمل بالقرآن، زعماً منهم بأنهم أهل الحق، ومن سواهم أهل الباطل.

والذين خرجوا من خطة التوحيد إلى خطة التجسيم فأثبتوا أن الله ينزل إلى عباده يوم القيامة في صورة شاب أمرد يراهم ويرونه، يزعمون العمل بالقرآن لأنه يقول: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" استدلال باطل وخطأ فاضح. والعجب لهؤلاء، كيف ضبطوا حتى في معرفة اللغة العربية، إن قول الله تعالى (إلى) اسم لا حرف وهو بمعنى النعمة، ومعناه منتظرة ثواب ربها.. أو إلى ربها ناظرة بالبصيرة والعقل لا بالبصر.

والذين يباشرون أنواع القبائح ويدّعون العمل بالقرآن لأنه يقول: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين".. فالرجل منهم يعبد مدّة مقدّره ثم يرى إن أتاه اليقين، فيعتزل العبادة ولا يصلي ولا يصوم ويفعل كل قبيح، لأن القرآن قد رخص له بزعمه.

والذين افتوا بقتل حسين الرحمة ريحانة رسول الله (ص) طمعاً في الذهب والفضة والحكم الزائل زعموا العمل بالقرآن لأنه يقول: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بقت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى امر الله" فعدوا حسينا باغيا، ويجب قتله. نعم لأنهم نبذوا القرآن وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً، وليس في القرآن جاه وهداية لهؤلاء.. كلا، اقرأ هذه الآية الكريمة في صدر هذا الكتاب العزيز: "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين".

القرآن معجزة الدهر

القرآن هو معجزة الدهر الخالدة النبوية، الذي بنيت عليه نبوة محمد (ص)، القرآن هوالذي أخضع أولئك العرب، القرآن هو القوة التي تحدى محمد بها العرب، فطلب منهم ان يأتو بكتاب مثله، ثم تنازل إلى عشر سور من مثله، ثم تنازل إلى سورة واحدة، وهو نهاية التحدي "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله" فعجزوا فسجل القرآن عجزهم: "قل لئن اجتمعت الجن والانس على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً". جاء الانبياء المتقدمون بمعاجز اوجبت تصديقهم واخضاع الناس لهم لكنها ذهبت بذهابهم، ولم يبق بعدهم الا الاخبار بها. اما نبينا محمد (ص) فقد ترك بعده هذه المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة، وهي القرآن، وليس الخبر كالعيان.

وكل من قرأ القرآن بإمعان وتدّبر لابد أن يهتدي إلى سبيل النجاح، وإنني أظنك لا تجهل المقصود من التلاوة وهو التدبير في القلب، لا مجرد حركة اللسان.

تلاوة القرآن

قال رسول الله (ص): « ويل لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتدبر بها».

إننا نسمع كثيراً من التالي للقرآن في الصباح والمساء، لكن سماع تلاوتهم وسماع المتكلم العادي على حد سواء، وهذا أدل دليل على عدم تأثرهم. نعم إنهم بُعَداء على القرآن واذا تولى الفرد منهم تلاوة القرآن فإنما يؤدي واجب وظيفته التي تسوق له الراتب الشهري لا واجب ربه، لان موظف مستاجر.

إن الذين كانوا أهلاً للتلاوة وقرأوا القرآن بحق كما قال الإمام الصادق(عليه السلام): لقد تجلّى اللّه لخلقه في كلامه، ولكنّهم لايُبصِرون.

وعن حذيفة قال: لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن. والامام علي (ع) يقول في وصف المتقين: وإذا مروا بآية تخويف اصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا ان زفير النار يدور في آذانهم.

هؤلاء الذين قرأوا القرآن وأخذوا يطبقونه بأفعالم، نعم أخذوا يبرزون للأمة قولاً وفعلاً وصفة وتطبيقاً.

من هم علماء أمتي؟

لما عمَّ الظلم والجور في الإسلام نهض نبي الرحمة يمّثل القرآن ويجسّم كل حرف من حروفه، ويرى الأمة الصفة والفعل الخ. قال الرسول الله (ص): علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل. فمن هم الذين يقصدهم الرسول الأعظم بهذه الكلمة العظيمة؟

أُكُل منتسب للعلم والدين؟ أُكُل زاعم تمثيل الدين وخدمة رسالته؟

كلا إن المزاعم كثيرة، ولكنه الحقائق قليلة جداً. إن الألقاب والأسماء في المجتمعات وافرة ضخمة، ولكن الحقائق شواذ ونوادر.

انه محمد الذي لا ينطق عن الهوى يرمز بذلك التشبيه إلى العلماء العاملين الذين كشفوا النقاب عن وجه الحقائق، الذين خدموا الدين والأمة الإسلامية، الذين رأوا الحياة هي الدين والعمل من أجل تطبيقه، ورأوا الدين هو الحياة الحرة الثمينة.. الذين إذا فتشت عنهم وجدتهم أحد العوامل القوية والأسباب المهمة في انتصار العقيدة وبقاء المبادئ الحقة، وإذا عرفت هذا زال التعجب من انتصار هذه العقيدة. رغم النقمات التي فرضتها القصور والأجيال عليها، مع أنها عزلاء من السلاح والقوة والكثرة والملك والسلطان.

ومن هنا اعرف أيها العاقل صحة البناء وقوته ورصانته. عدد أكبر، بجميع آلات الهدم، ومعدات التخريب، يجتمع على هدم بناء فلا تحدث فيه أدنى تأثير، إن هذا أول دليل على قوة البناء، وإنه الأعجوبة في القوة والتصميم.

علي بن عبد العزيز الخليعي الموصلي

من هم زوار الحسين؟ وأنت لا تجهل ما للعقيدة من أثر في أهلها.. جاء في ما يذكره أهل الفضل أن شخصاً اسمه علي بن عبد العزيز الخليعي الموصلي (توفي في 580 هجرية) أسمته أمه علياً، وكان هذا غريب منها، إذ كيف أسمته عليا وهي كانت لا تطيق ذكر علي وولده، ولكن في الحقيقة إن الأسماء لا تقرب الشخص إلى ذويها.

والحاصل: بعد أن كبر وبلغ السابعة عشرة من عمره رأت من واجبها أداء نذر عليها، فالتفتت إليه قائلة: بني إن عليك نذراً لابد من أدائه. قال: وما هو يا أم؟ فقالت: أن تقطع الطريق على هؤلاء الوثنيين، عبدة الاصنام، عبدة القبور الذين يقصدون قبر الحسين، فتسلب وتنهب وتقتل مهما أمكنك.

فقال: إن هذا الأمر فيه خطر عظيم، فقالت: نعم وأنا أعلم ولكنه لابد من أداء النذر ولو مرة واحدة تقطع الطريق وتؤدي الواجب، لئلا يصيبك شيء في حياتك. فقام ووضع الخنجر في بطنه مستعداً لقطع الطريق على زوار الحسين، وذلك في أول الليل، كما هي القاعدة المتبعة لقطاع الطريق.

فجلس من أول الليل على طريقٍ المسيب ينتظر القافلة فأبطئت القافلة، ولم يكن معتاداً على ذلك، وهو شباب، وهب عليه هواء الصحراء وطال به السهر، فأخذت عينه الكرى، فرأى في عالم النوم طيفاً طويلاً في مدة قصيرة جداً.. وكثيراً ما يشاهد الإنسان في المنام طيفاً يقتصر إلى ساعات بل إلى أيام، رأى في النوم كأن القيامة قد قامت، وقد حشر الناس على صعيد واحد، ورأى أهوال

المحشر وشدته، ورأى كرسياً وضع في قلب الحشر، وجاء رجل جميل الخلقة بهي الكريمة عظيم الهيبة فجلس على ذالك الكرسي، وصار الملائكة يعرضون عليه المسلمين الواحد بعد الآخر وهو يسأل عن أعمال كل فرد من المسلمين ثم يصدر الأمر إلى الملائكة بتنفيذ الجزاء فيه.

وجيء به هو - أي الشباب - فقدم إلى رسول الله (ص) فقال للملائكة - ماذا كان هذا يعمل؟

فقالوا: هذا يقطع الطريق على زوار ولدك الحسين، فقال: وماذا تنتظرون به خذوه، فأخذوه يُسحب إلى النار، وللنار ملائكة خاصة، هم الزبانية.. فلما بلغوا به إلى النار سلموه إلى الزبانية، فقال الزبانية: هذا قد وقع عليه غبار من قافلة قاصدة إلى قبر الحسين بسبب حركة السير، فاذا أردتم أن يدخله النار فاذهبوا به ونظفوه من الغبار تماما ثم اتونا به.. وتواصلت قصة الحلم حتى انتبه مذعوراً مدهوشاً. وقام ينظر وإذا بالقافلة قد اجتازت تواً. فقال في نفسه إن هذه رؤيا حق، وإن الرؤيا لصادقة، وإن الشيطان كما نعتقد لا يتصور في صورة الرسول وأهل بيته.. فقال:

ظهر لي أن هؤلاء محقون صادقون في دعواهم مظلومون في حياتهم، فلحق بالقافلة ينادي بأقصى صوته: يازوار سيدي ومولاي الحسين خذوني معكم لزيارته، خذوني معكم. فقال له أهل القافلة، من أنت. قال: زائر. قالوا دع عنك زائر لا يأتي وحده في هذه الظروف العصيبة وفي هذا الليل المظلم، فإن كنت صادقا وان لم تكن قاطع طريق فالق سلاحك.

فقال: كما تأمرون هذا سلاحي ألقيته، وإليكم أروي قصتي، وأخذ يروي لهم قصته : كان من أمري كذا وكذا وكيت وكيت، والآن

أنا ذاهب معكم إلى زيارة الحسين.. فمضى معهم إلى كربلاء ولما بلغوا قبر الحسين وجائوا لزيارته.. فقال اهدئوا قليلاً فإنني أريد أن أمدح الحسين.. فانصتوا، فانشد:

إذا شئت النجاة فزر حسيناً
غداً تلقى الإله قرير عين
فحاشا النار ليس تمس جسماً
عليه غبار زوار الحسين

وعرف الخليعي من ذلك الوقت ولزم مكانه مجاوراً للحسين، وأخذ ينظم الشعر في الحسين مدحاً ورثاءً حتى كان له ديوان كبير، وله قصائد في «المنتخب» للطريحي رحمه الله.

نعم النجاة في الحياة، في الحاضر، في المستقبل، في الآخرة، في المعاملة، في الأخلاق، النجاة من كيد العدو.

التوكل على الله

قال الله تعالى (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (إن الله يحب المتوكلين).

ان الكتاب والسنة قد أكثرا من مدح التوكل والترغيب فيه. فالذي يتوكل على الله يكون في حصن حصين، عزيز النفس ، لو اجتمع أهل السماوات والأرض على كيده، لجعل الله له المخرج من ذلك وساق له الفرج وكف عنه كل ظالم ومنع كل كائد.

المتوكل على الله يكون مطمئناً من جميع الجهات، من سلامة الجسم واستمرار الرزق، وحسن السمعة، ونقاء العرض. لو ظلمه أحد من الناس واعتدى عليه في بعض الأمور فعليه أن يستقر في بيته وينام آمنا مطمئناً، ويعتقد أن الظلم والاعتداء يعودان على صاحبهما. لكن بشرط أن يكون توكلاً حقيقياً، لا أن يقول توكلت على الله، وأفوض أمري إلى الله..

ولاشك أن المؤمن لابد أن يكون متوكلاً لأن الذي يؤمن أن النفع والضر بيد الله لابد أن يترك الأمر إليه ويستبدل بالخوف السكنية والاطمئنان. قال تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال (وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه).

قال رسول الله (ص): من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤن ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكَلَهَ الله إلى الدنيا. وقال: من سَرَّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده. وقال: لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله

لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

لكن هناك شبهة يمكن أن تتبادر إلى الأذهان بأن التوكل يضعف الهمة ويؤدي إلى الكسل ويعرض إلى الخطر ويمكّن العدو من الإنسان. نقول: ليس معنى التوكّل أن تجلس بلا عمل متوكّلاً على الله يسوق إليك الرزق، ليس التوكّل أن تترك بابك مفتوحاً للسُرّاق، ليس التوكّل أن تترك العمل والسعي وأخذ الحيطة والتدابير في الأمور، فتكون كَلاًّ بربك. كلا، إن التوكل أن تعمل وتتوكّل على الله وتغلق بابك وتتوكل على الله لا تحسب أن عملك أو تحصينك هما اللذان جليا الرزق ودفعا الخطر، بل تجعل ذلك موكّلاً للخالق المدبّر.

التوكّل أن تقطع إليه تعالى في جميع ما تأمله من المخلوقين وتزاول السعي فيما لا تسعه قدرتك. جاء أعرابي وناقته بيده وأراد دخول المسجد فقال: يا رسول الله ارسل فتى توكّلاً على الله أم أعقلها؟ فقال (ص): أعقلها وتوكّل.

إن الناس بجميع طبقاتهم محتاجون ومضطرون إلى التوكل، إلا أن فيهم فئات أكثر احتياحاً إليه وأشد اضطراراً وهم المصلحون المرشدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر لأنهم يجتازون دائماً الطريق المملوء بالأشواك.. (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلتُ وإليه أنيب).

خذوا زينتكم

قال تعالى في كتابه المجيد: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) صدق الله العظيم.

خذوا زينتكم.. يعني الالتزام بالمظهر وحسن الهيئة ويحث على ذلك حثاً بالغاً لأن الإنسان كما هو الواضح لا يُقَّدر إلا بمظهره.

وفائدة الإنسان من كل ما يملك هي كما قال رسول الله (ص): «وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أوتصدّقت فأمضيت».

فنبينا الأعظم في شريعته القويمة لم يمنع علينا التحلى بجميل الملابس..

قال (ص): ما منع أحدكم إن وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته. لكن على شرط أن لا يكون ذلك الثوب الجميل الفاخر سبباً للابسه أن يمر على أخيه المؤمن فيمشي الخيلاء ولا يسلم عليه بل يلقي عليه نظرة الاحتقار. على شرط أن لا يكون القصد من حسن المظهر وطيب المأكل التطوّل والريبة.

ولا يكون القصد التفخفخ والمرءاة كما يصنع كثير من الناس إذا جلس أحدهم في المجلس تحدث إلى الناس بما أكل وما ملك وأخذ لبيته وابتاع لأولاده. كلا، قال النبي (ص): المرائي في معيشته كما المرائي في عبادته. نعم الشرط الذي يريده الإسلام أن يكون الهدف الأول والأخير مما ذكرنا إرضاء الخالق جل وعلا وإظهار نعمته والتحدث بكرامته والتحبب اليه.

قال الرسول (ص): ان الله يحب كل جيد الريح كل جيد الثياب.

وأتي اليه (ص) ذات يوم رجل رث الثياب والهيئة فقال له: ما ملكك؟ فقال الرجل: من كل المال - أي مما يملكه العرب من الخيل والإبل والبقر وما شاكل ذلك - قد أتاني من الله تعالى: فقال (ص): «إن الله يحب إذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر إلى أثرها عليه».

قال تعالى: وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. أنت لا تجهل ان للجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة شريطة الاعتدال فيها. فالغذاء وهو أول المقومات الجسمية قد ينقلب ضربة قاضية على الحياة إذا استعمل بإفراط وإذا لم تُرَاعَ فيه القواعد الصحية بين المتعاكسات من المواد الغذائية، فالآية الكريمة الانفة الذكر جاءت بهذه القاعدة الرئيسة العظمى.

انما الحِمْيَة من الشيء الإقلال منه

اعتنت جميع الأديان وعلى رأسها الإسلام بالصحة ونظافة الجسم عناية تامة فلقد جمع القرآن الكريم من الحكم والآيات البينات ما يدهش اللب ويجر العقل، فبينما يتحدث إليك عن عجائب السموات ويلفت نظرك إلى ما ابدعه من المخلوقات إذا به يستدرجك للبحث في مسائل طبية ويتغلغل بك في العلوم الصحية لانه ما ترك مسألة تحتاج اليها الحياة ولا مادة يفتقر اليها البشر إلا بّينها وعالجها. قال كثير من العلماء:

لقد جمع الكتاب الطب في كلمتين وهما قوله تعالى: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا».

ويؤيد هذا المذهب ما جاء عن الصادق حيث دخل عليه طبيب نصراني فقال: يابن رسول الله، أفي كتاب ربكم أم في سنة نبيكم شيء من الطب؟ فقال الإمام: نعم أما في كتاب ربنا فقوله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) وأما في سنة نبينا فقد قال (ص): الحْمَية من الأمل رأس كل داء والإسراف في الأكل داء.

فدهش النصراني لعظمة الدين وسرعة الجواب الوفي وقام ليخرج وهو يقول: والله ما ترك كتاب ربكم ولا سنة نبيكم شيئاً من الطب لجالينوس. الحمية المقصودة هي كما فسرها عليه السلام: ليس الحمية من الشيء تركه انما الحمية من الشيء الإقلال منه.

كلوا واشربوا ولا تسرفوا

الاسـراف فـي كل شـيء مضر بالانسـان الا ما كان فـي طريق الخير وذلـك لا يسـمى إسـرافاً إنمـا هو بـذل وزيادة فـي الإنفـاق. ولنعرف الإسـراف بمعنـاه وحـدوده من عظمـاء العالم عليهم السـلام.

قـال رسـول اللـه (ص): من السـرف أن تـأكل كل مـا تشـتهيه. وقال الصـادق عليـه السـلام: ليـس فيما أصلـح البدن إسـراف انما الإسـراف فيمـا أتلـف المال وأخّر - أو وأضـر - البدن. وقال أميـر المؤمنين (ع): يضر النـاس نفسـهم في ثلاثة أشـياء: الإفراط في الأكل اتـكالاً على الصحة وتكلـف حمل مـا لا يطاق اتكالاً علـى القوة والتفريط فـي العمل اتكالاً على القدر.

وقـال مبينـاً العقوبـات العاجلـة من الإسـراف في الأكل: من شـبع - أي مـن أسـرف فـي الأكل - عوقب فـي الحال ثلاث عقوبات شـح النوم علـى عينيـه والكسـل على جسـده والغطـاء على قلبـه. أمـا العقوبات الآجلة فهي قسـوة القلب وسـقم البـدن والبعد من اللـه والمبغوضيه عنـده وطول الوقـوف يوم القيامـة والجوع في المحشـر. قال عوف بن أبـي جحيفـة عـن ابيه: أكلت يومـاً ثريداً ولحماً سـميناً فأتيت رسـول الله (ص) وأنـا اتجشـأ فقـال احبـس جشـاءك يا أبـا جحيفـة إن أكثركم شـبعاً فـي الدنيا اكثركم جوعـاً في الآخرة. فمـا أكل ابوجحيفة ملء بطنه حتى قبضه اللـه تعالى.

هكـذا فـرض الإسـلام عنايتـه بالصحـة لأن المـدار كلـه عليهـا أليـس الحكمـاء يجمعـون أن العقل السـليم في الجسـم السـليم. لذلك فإنك لا تجـد رسـماً من رسـوم الإسـلام ولا عبـادة مـن عباداتـه إلا وتجد خط حفـظ الصحـة البدنيـة والعقلية فـي المكان الأسـمى.

تأمل أسـرار الفرائض والواجبات وكيف تدعـوا للصحة والنظافة البدنية للتعـرف علـى صحة ما أقـول. أما في سـبيل حفظ العقل الـذي تميز به

الإنسان وشرف به فقد حرّم الخمر بل كل مُسكر ومخمر، كالحشيش والأفيون والمورفين والهيروين وغير ذلك من المسكرات والمخدرات. يؤكد العموم في التحريم ما جاء عن الرسول (ص): «إن الله لم يحرم الخمر لاسمها ولكن حرمها لعاقبتها فما كان عاقبته عاقبة خمر فهو خمر».

هذه الأداب والصحة والنظافة والتعاليم جاء بها الاسلام فهو الدين الصالح لكل زمان ولكل قطر وبلد. هذه الإرشادات موجودة عند هذه الأمة مفقودة من كل أمة لكن القائل يقول: إننا نرى في العالم الغربي والأقطار التي لا تعرف بالإسلام ولا تؤمن به تقدماً في الطب ورقياً في المدنية وصحة ونظافة وحضارة؟

نجيبه: إن تلك الحضارة والمدنية والطب والوعي وغير ذلك قد وصل إلى العالم الغربي وضربت أسسه أيام اختلاط بالمسلمين في الشرق والغرب، منذ أيام الحروب الصليبية وأيام تغلغل الفتح الاسلام في الأندلس وما جاورها، فاستفاد أولئك من العالم الاسلامي ومن حرية الفكر والنظام جسماً وعقلاً، فنهضوا وتقدموا إلى الأمام.أما المسلمون فيا للأسف نكصوا على الأعقاب وتفرغوا للفتن والمعارك والتقاطع ورجعوا إلى الوراء وتجردوا من الأداب.

قال الشاعر:

فكان ما كان مما لست أذكره

فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن السبب.

لا أريد أن أناقش قضية من القضايا ولا أفضل واقعة من الوقائع ولكن أبيّن أن النتيجة الأخيرة من تلك الفتن والاضطرابات كما بينها الشاعر:

رفعوا رأساً يصلون على

جده المرسل طوعاً وأبا

الفرق بين العجْب والكبْر

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث منجيات وثلاث مهلكات. فالمنجيات: خشية الله في السر والعلانية والاقتصاد في الغنى والفقر والحكم بالعدل في الرضا والغضب. والملكهات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.

الكلام على العجب: من المهلكات العجب واخذ لهذا المغنى الامام جعفر الصادق فقال: من دخله العجب هلك.

ولنعرف العجْب ماهو، إن بعض الناس يخلطون بين العجب والكبر ولا يعرفون الفرق بينهما والواقع أن العجْب شيء والكبْر شيء آخر. فالكبْر هو أن يختال الإنسان في مشقة أو يتعاظم في نفسه وفي منطقه، ومن صوره أن لا يقبل لأحد أياً كان أن يسخره ، ولا يقبل انتقاد أحد في قول أو فعل مع علمه بالخطأ المقصود من الانتقاد واعترافه به في قراره نفسه.

أما العجْب فهو أن يرى الإنسان فعله أو نفسه أرقى مراتب الاستحسان فيعتقد الكمال والتفوق وإذا نظر إلى فعله بهذا المنظار لا يمكن أن يعترف بنقص أو خطأ في فعله أو قوله ولذلك لا يقبل نصحاً ولا انتقاداً ولا إلفات نظر بكل احترام على الأقل ولذلك يستبد برأيه ويعتمد على عقله فقط.

وإذا بلغ الوصول إلى تلك المرتبة وقف عن السير والتقدم ولذاك يتأخر ويتخطئ، لأن الإنسان في هذه الحياة إما أن يسير في أوقاتها ويتطور معها وإلا تأخر ونقص لأن عجلة الدهر لاتزال مسرعة في الحركة وقافلة الحياة لا تبرح سائرة.

عرفنا العجب أن رؤية الإنسان نفسه أرقى مراتب الاستحسان

وهـذه أرفـع مراتـب العجـب والواقـع أن العجـب قليلـه كثيـر، وبمقـدار مـا يكـون فـي العمـل عجـب يدخـل عليـه نقـص.. أن تمـر بذهـن الإنسـان فكـرة العجـب يظهـر أثرهـا عليـه فـي نفـس اللحظـة.

ولكـن العالـم الـذي إذا نظـرت إليـه رأيـت فيـه صفـاة الديـن وأخلاقـه، رأيـت فيـه الداعـي الحق للعقيـدة بأدابـه ومنطقـه السـليم وقلبـه الطاهـر وعفافـه وصدقـه ووقوفـه عنـد الحـدود واحترامـه للنـاس وتواضعـه لهـم، لا الـذي يتشـبّه بالجبارين فـي لبسـه ومشـيته وجلسـته ومنطقـه، أو الزاهـد لكنـه يقبـل علـى الدنيـا بكليتـه ويحتضنهـا احتضـان الطيـر نفسـه. أن هـذا مثـال المخادعيـن للنـاس المشـوهين لوجـه الديـن المنفريـن عنـه.

إن هـؤلاء قـد ينصّبـون أنفسـهم كممثليـن للدّيـن، وواعظيـن للأمـة لكـن موعظتهـم تـزل عـن القلـوب كمـا يـزل الفطـر عـن الصفـا. فمـا هـي ثمـرات هـؤلاء للإسـلام؟ اذ تـرى أن الشـباب يفـر منهـم، وينكمـد بوجودهـم المؤمـن، وينتصـر بهـم العـدو، ويقلدهـم الجاهـل.

قـال بعـض المتقدميـن: يعمـد أحدكـم فيقـرأ القـرآن ويطلـب العلـم حتـى إذا علمـه أخـذ الدنيـا فضمهـا إلـى صـدره وحملهـا فـوق رأسـه فنظـر إليـه ثلاثـة: امـرأة ضعيفـة، وأعرابـي حافـ، وأعجمـي جاهـل. فقالـوا: هـذا "أعلـم باللـه منـا لـو لـم يـرَ فـي الدنيـا خيـراً مـا فعـل هـذا". فرغبـوا فـي الدنيـا فجمعوهـا ممثلـة كمثـل الـذي قـال فيـه اللـه: (ومـن أوزار الذيـن يضلونهـم بغيـر علـم ألا سـاء مـا يـزرون).

لذلـك قـال الامـام علـي (ع): قصـم ظهـري اثنـان عالـم فاسـق يصـد عـن علمـه بنفسـه، وجاهـل ناسـك يدعـو النـاس إلـى جهلـه بنسـكه. إذن فالعالـمِ المقصـود هـو العامـل، الصـادق فـي قولـه، القائـم بواجبـه، الناشـر لرسـالته، المـؤدي لأمانتـه.

قـال عيسـى ابـن مريـم عليـه السـلام: مـن عَلِمَ وَعَمِـل وَعَلَّـم عُـدَّ فـي

الملكوت الأعظم عظيماً. نعم يُعَد في الملكوت الأعظم فعليه أن لا يكترث بالدعايات الفارغة والمزاعم الكاذبة التي توجه إليه، ولا يتأثر بما يقوم في وجهه ويعترض طريقه من تكذيب واستهزاء وحقد وإعراض ومقاطعة، بل يمضي في طريقه بلا توانٍ فإن الله معه والحق يعلو ولا يعلى عليه وما كان لله ينمو. وإن ما ينشأ من الأرض يعود إلى الأرض فيتحطم ويبطل وتتضح الحقيقة، ولا يخلد وينتشر إلا خبر السماء وما توجهه السماء.

إن الإمام أمير المؤمنين وإمام المتقين قد لُعِن ألف شهر على المنابر وصار لعنه سنة، ولكن أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.. من الشعر المشهور والمذكور على لسان زين العابدين عليه السلام لم يكن من شعره، ولكنه شعر لنزار أحد الخلفاء الفاطميين الاسماعليين الذين حكموا مصر، وقد أنشده بمناسبة موته:

نحن بنو المصطفى ذوو غصص
يجرعها في الأنام كاظمنا
عظيمة في الأنام محنتنا
أولنا مبتلى وآخرنا
يفرح هذ الورى بعيدهم
ونحن أعيادنا مآتمنا
والناس في الأمن والسرور وما
يأ من طول الزمان خائفنا
وما خصصنا به من الشرف الـ.
طائل بين الأنام آفتنا
يحكم فينا والحكم فيه لنا
جاحدنا حقنا وغاصبنا

الشعر والنثر يشتركان في التعبير عما في النفس

قال الله تعالى: والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. صدق الله العظيم

ينقسم الأدب إلى قسمين منثور ومنظوم. فالمنثور هو الكلام المطلق الخالي من الوزن والقافية وهو نوعان. قسم مسجع ومرسل. فالمسجع ما التزم في كل فقرتين أو أكثر بقافية فيه والمرسل ما كان غير ذلك. والمنظوم هو الكلام المقيد بالوزن والقافية. والذي يظهر أن التاريخ عرف الشعر قبل النثر ولكن العقل والإدراك يحكم بتقدم المطلق على المقيد وقد قال أحد المؤخين في كتابه (إعجاز القرآن): إن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر.

الشعراء جمع شاعر، وسمي الشاعر شاعراً لفطنته.. فالشعر من الشعور وهو والنثر يشتركان في التعبير عما في النفس وينتقل الشعر بإبداء ما في القلب أو صوغ الفكرة بكلام منظوم مقيد بوزن خاص وقافية خاصة. وهذا هو الشعر الصحيح أما ما يسمى اليوم بالشعر المنثور فهو لا شك بعيد عن ذلك الشعر وبريء منه براءة الذئب من دم يوسف فما هو إلا مقتبس من الغربيين فالمتشبثون به مقلدون لأولئك دون شك.

والشعر في الواقع ينقسم إلى قسمين شعر مذموم وممقوت

عليه صاحبه وشعر بالعكس من ذلك.

أما المذموم فهو ما أشارت إليه الآيات الكريمة فالشعراء المعنيون في صدر الآيات هم الذين يكون مدحهم وهجائهم تبعاً للغضب والرضا والذين يمزقون أعراض الناس بألسنتهم والذين يلقحون الفتنة ويشقون عصا المسلمين بما ينظمون والذين يمدحون من لا يستحق المدح طمعاً في المادة الزائلة وتهالكاً على حطام الدنيا والذين يخدمون ويكرسون أدبهم في ترويج المبادئ الهدامة وخدمة أهل الضلال.. هؤلاء هم الممقوتون عند الله والملعونون في الدنيا والآخرة. هؤلاء هم المضاعف لهم العذاب الأليم لأنهم يكونون قدوة لغيرهم فيستشهد صاحب الضلال بأقوالهم ويهتف مفرق الشمل والكلمة بأشعارهم ويتخذ أهل العقائد الفاسدة منهم أناشيداً لعقائدهم.

وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: يتبعهم الغاوون. ألم ترَ أنهم في كل وادٍ (من أودية الكلام أودية الضلال أودية التضليل) يهيمون (أي يمضون فيجاوزون الحد مدحاً وهجاءً) وإنهم يقولون (فعلنا) ما لا يفعلون (أي يكذبون).

وقد بدأ وتأسس هذا النهج الشيطاني منذ بدأت الدعوة الإلهية وتأسست الدولة الإسلامية حيث كان للمشركين شعراء يحاربون الدعوة المحمدية وينقضون على الحركة الدينية بأشعاره، مثل عبدالله ابن الزبعرى الذي يستشهد بشعره يزيد بن معاوية لما وضع رأس السبط الشهيد بن يديه وأخذ يضربه بمخصرته:

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقْع الأسل

لأهلُّوا واستهلّوا فرحاً
ولقالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم
وعدلناه ببدر فاعتدل

وزاد يزيد في الأبيات بيتين هما:

لعبت هاشم بالملك فلا
خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم
من بني أحمد ما كان فعل

وهذه الأبيات التي كشف بها يزيد عن دخيلة نفسه وصوّر بها عقيدته هي التي أهاجت عقيلة بني هاشم زينب الكبرى فارتجلت خطبتها العظيمة التي تقول فيها: (وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم: لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ولقالوا يا يزيد لا تشل منحنياً على ثنايا أبي عبدالله ومكان مقبل رسول الله تنكتها بمخصرتك إلخ).

أما القسم الثاني من الشعر وهو الذي يقرّب أهله من الله ويجعلهم في المراتب الرفيعة دنيا وآخرة ويخلّدهم في الحياة فهو شعر الشعراء الذين استثنتهم الآية الكريمة قال تعالى: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (من الشعراء) وذكروا الله كثيراً (أي لم يشغلهم الشعر عن الذكر) - بل في الواقع كان شعرهم تخليداً للذكْر وأهل الذكْر - وانتصروا (بهجوهم الكفار والضالين وأذنابهم) من بعد ما ظلموا (أي بهجو الكفار لهم واعتداء أهل الباطل عليهم) وسيعلم

الذين ظلموا (من الشعراء وغيرهم) أي منقلب (أي مرجع) ينقلبون (يرجعون بعد الموت)". فالذين آمنوا من الشعراء بالحق وهتفوا به وأذاعوه هؤلاء الشعراء هم الذين أشاد الرسول بشعرهم ومدحهم وكان يسمع الشعر ويبحث عنه وكلمته في ذلك مأثورة مشهورة: إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا.

ولست جاهلاً أن الخصومة لما اشتدت بين الرسول وبين أعدائه من قريش فجردوا عليه الأسنة والألسنة فغضب المسلمون لذلك ووقفوا ينتظرون الإذن من النبي (ص) بمقابلتهم فماهو إلا أن قال لهم: ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم فانبرى حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رداحة وشبت الحرب بقصائدهم البليغة وجرت معركة أدبية في ميدان الإسلام وقد برز في تلك المعركة حسان فهو فارسها الأول.

ولستَ جاهلاً أيضاً بقصة حسان بن ثابت شاعر الرسول (ص) ودفاعه عن الإسلام بشعره ورد هجاء المشركين عليهم حيث كانوا يهجون رسول الله (ص) أنت به عارف. لكن حساناً في ذلك الوقت كان قد أحسن فاستحق الدعاء والإكرام من الرسول (ص).

ولستَ جاهلاً دعاء النبي لشاعره حسان بعد أن أعجب النبي كثيراً بشعره الذي ألقاه يوم الغدير بعد عقد الولاية لأمير المؤمنين وحصول البيعة من جميع المسلمين وبعد نزول الآية الكريمة: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً. فاستأذن حسان من الرسول أن يقوم فيقول ما يرضي الله ورسوله فأذن له فقام وأنشد:

يناديهم يوم الغدير نبيهم
بخم وأسمع بالنبي مناديا

وقـد جـاءه جبريـل عـن أمـر ربـه
بأنـك معصـوم فـلا تـكُ وانيـا

إلى قوله:

فقـال لـه قـم يـا علـي فإننـي
رضيتـك مـن بعـدي إمامـاً وهاديـا
فمـن كنـت مـولاه فهـذا وليـه
فكونـوا لـه أنصـار صـدق مواليـا

إلى آخر الشعر..

فقـال الرسـول (ص): لازلـت يـا حسـان مؤيـداً بـروح القـدس مادمـت ناصرنـا بلسـانك.

وتقييـد الرسـول دعـاءه لحسـان بهـذا القيـد دلّ علـى شـيء سـيكون فـي المسـتقبل يتعلـق بالمناسـبة الحاضـرة وبالبيعـة التـي تقلدهـا وتطوقهـا.

وهـذا هـو الإمـام الباقـر (ع) يدعـو للكميـت الأسـدي لمـا أنشـده قصيدته التي مطلعها: (من قلب متيم مستهام) قائلاً: لاتزال مؤيداً بـروح القـدس. فـلا يقيـد دعـاءه لعلمـه بعاقبـة الرجـل.

الحاصل، فالشعر له مكانته السامية في معاضدة الدعوة الإسلامية والصحوة في وجه الهاجين. أما لو اعترض معترض بقوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) قلنا: إن معناه وما علمناه الشعر بتعليم القـرآن ومـا ينبغـي للقـرآن أن يكـون شـعراً فـإن نظمـه ليـس بنظـم شعر أو أن الكناية بالهاء أو الضمير في علمناه يعود إلى النبي عليه السلام والضمير في له يعود إلى القرآن. فالمعنى إذا وما ينبغي له أن يقول الشعر من عنده. ويمكن عود الضمير على النبي (ص)..

نعم لأنه أرفع رتبة وأبعد درجة من الشعر، فالشعر منقصة الكامل وكمال الناقص، ودعوى الكفار أن القرآن شعر وأن النبي شاعر كاذبة لا يقرها الواقع.

وكان (ص) إذا تمثل بشعر جرى على لسانه مكسراً، وكان يتمثل بهذا البيت: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا فيقدم الإسلام على الشيب. وكان يتمثل ببيت الشاعر أخي بني قيس: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار ما لم تزوّدِ. فيقدم ما لم تزوّدِ على بالأخبار فقيل له ليس هكذا قال الشاعر قال: إني لست بشاعر لأن الشعر كما قيل منقصة الكامل وكمال الناقص.

الغرض فالشعر ليس ممقوتاً ولا مذموماً بل هو الطريق العظيم لتخليد الشخصيات والذكريات وتقييد الحوادث وهو السر في فوز رجال بذكر المجد وحياة الخلود حيث كانت قصائدهم وأناشيدهم تنطق بالعقيدة الحقة وتخلد المآثر الجليلة لأصحابها وتوجه الدين في شرق الأرض وغربها. ماتوا ولكن ألسنتهم ناطقة وغابوا ولكن أشخاصهم ماثلة وقبروا ولكن شعورهم متحركة خالدة، فالكميت والفرزدق ودعبل الخزاعي وغيرهم من ألسنة الحق وشعراء الإسلام.

وقد حث أهل البيت (ع) على نظم الشعر فجاء عنهم: من قال فينا بيتاً من الشعر بنى الله له بيتاً في الجنة. وفي حديث: مدينةً في الجنة يزوره فيها كل ملك مقرّب وكل نبي مرسل. كما حثوا أيضاً على عقد المجالس الحسينية التي تقرأ فيها تلك القصائد وتتلى فيها تلك الأناشيد التي تقض مضاجع أعداء الحق وتهتف بمظلومية أهل الحق.

الحوادث التاريخية
تظهر جوهر كل ذي جوهر

قال أمير المؤمنين عليه السلام: في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال.

إن الحوادث التاريخية والتطورات الزمنية تظهر جوهر كل ذي جوهر، وإن تقلب الأحوال توقف العقلاء على حقيقة الإنسان وتكشف لهم دخيله نفسه.

ومهما تكن عند إمرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَم

والحياة هي المدرسة العامة للبشر والتجارب للإنسان أشبه بشيء بالاختبارات والامتحانات فإما أن يخرج الإنسان منها بالفوز والنجاح فتعلو رتبته أو بالعكس من ذلك فترسب درجته وتسوء سمعته.

تسلح الإنسان بالتقوى

قال الله تعالى: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم». صدق الله العظيم

للتقوى تعاريف كثيرة ومن أبرزها أن يتقي الإنسان ما يغضب ربه وما فيه ضرر لنفسه أو ضرار لغيره وذلك لا يكون حتى يجعل الله نصب عينه فيراقبه في نطقه وصمته وحركاته وسكناته وخلواته واجتماعاته. كما جاء في الدعاء المأثور عن زين العابدين (ع): اللهم اجعل لي قلباً يخشاك كأنه يراك إلى يوم يلقاك.

فإذا تسلح الإنسان بالتقوى فقد تسلح بأنفذ الأسلحة وأمضاها، السلاح الذي لا يبطل مفعوله ولا تبلى جدته في أي وقت من الأوقات، وعندئذ يكون في أمنٍ من الخوف، وأمن من الحزن، وعندئذٍ يكون حليفه النصر والتأييد والتوفيق أينما كان ومع من كان. قال تعالى: "ومن يتقِّ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب"

قال زين العابدين في الشعر المنسوب إليه:

من عرف الربَّ فلم تعنه
معرفة الرب فهذا شقي
ما ضر في الطاعة ما ناله
في طاعة الله وماذا لقي
ما يصنع العبد بعز الغنا
والعز كل العز للمتقي

موقف زين العابدين مع هشام بن عبد الملك

خرج هشام بن عبد الملك في زمن أبيه - وهو إذ ذاك ولي العهد - إلى حجِّ بيت الله الحرام ومعه من الحرس والحاشية والإبل ما يسدّ عين الشمس ويملأ قلوب الناس مهابة ورهبة. هكذا أخرج من دمشق العاصمة، ومرّ المدينة فزاده حاكمها هشام بن إسماعيل تأميناً وهيبة بالجند. حتى بلغ مكة ولولا لباس الإحرام لخيّل للناس أنه جند كثيف وجيش زاحف على مكة.

أتى ولي العهد هشام مع الحاشية إلى البيت ليطوف وأخذ الجند المحرمون ينبّهون الناس إليه ويوسّعون الطريق له. ولكن بدون جدوى حيث لم يوسع الحاج له في الطريق ولم يلتفت إليه أحد، بل كل من عرف أنه هشام نوى ألا يلتفت ولا يوسِّع فالبيت لله وسواء العاكف فيه والبادي ولا ميزة لرئيس فيه على مرؤوس ولا غني على فقير. وحاول الجند كثيراً لكن لم يفلحوا وتمنى هشام أن يصل إلى الحجر ليستلمه فلم يستطع بل حاول أن يراه على الأقل فلم يره. وضاعت أُبّهة هشام وذهبت هيبته ورهبته فلا ينظر إلى أحد إلا وأشاح بوجهه عنه ومن نظره عن غير قصد أضمر السخرية له، وكان أهل حمص يتراءى لهم أنه عمرون - رجل بيطار في بلدهم - فيضحكون منه.

وفي هذه الساعة سمع الذين كانوا على مقربة من الحجر تكبيراً عالياً وصار يقرب إليهم على بطئ وكأن أصوات التكبير تساير رجلاً ضعيف السير كليل القوة ومازال التكبير يدنو ويعلو ويشتد حتى ضجّ الحجيج كله بالتكبير والتهليل وكأنما لم يبق شيء على وجه الأرض

إلا وهو يكبّر ويلبّي. وانفرج الناس وتأخروا عن الطريق وإذا رجل قد ضمر بدنه وتعضن جلده واصفّر وجهه وارتعدت فرائصه ولكن وجهه يضيء وعليه مهابة وجمال لم يرَ الناس له شبيهاً يمشي في إزر ورداء وخفض رأسه وغض بصره وقد نفحت منه ريح العطر وبدا بين عينيه أثر للسجود كأنه ركبة عنز.

فترك الناس له الطريق ليصل إلى الحجر الأسود. التكبير يعلو من كل جانب والعيون شاخصة إليه بل قام البكاء للحاج لأن من رآه بكى فرحاً ومن لم يره بكى اسفاً لأنه حرم رؤيته لكثرة الزحام حتى بلغ الحجر واستلمه. ونسى حراس هشام هشاماً والتفتوا إلى الرجل ليمتعوا أبصارهم من رؤيته وفسحوا له كما فسح الناس وكبروا كما كبر الناس. واضطر هشام أن ينتظر فراغ أولئك الناس وأن يخف زحامهم ونصّب لنفسه كرسيا مبرزاً عند زمزم وجلس مغتاظا. فلما هدأ الأمر بعض الشيء جاء إليه الحراس والخاصة فسألوه: من هذا الذي أكرمه الناس كل هذا الإكرام وأعظموه كل هذا الإعظام؟ فقال هشام: لا أعرفه. وبلغت كلمة هشام: لا اعرفه آذان الناس وسرت من فم إلى فم وبعيداً عن طريق الطواف وقفت جماعة من سادات القبائل، ومنهم همام بن غالب أبو فراس الفرزدق الشاعر، وقد بلغ السبعين ولكنه لازال حسن الشعور متجدد الفكرة، فلما سمع هشام أحمرَّ أنفه وورم واشتد غضبه فقالت الجماعة حوله: ما بك يا أبا فراس؟ فقال: أما سمعتم قول الأحول (لا أعرف هذا) فقالوا له: ومن هذا. فاهتاج كما البحر ونسي أن ينتظر دوره في الطواف وقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم.

فقالوا: أعد يا أبا فراس وارفع صوتك فرفع صوته:

هـذا ابـن خيـر عبـاد اللـه كلهـم
هـذا التقـي النقـي الطاهـر العَلَـم
هـذا علـيٌّ رسـول اللـه والـده
أمسـت بنـور هـداه تهتـدي الأمـم
يـكاد يمسـكه عرفـان راحتـه
ركـن الحطيـم إذا مـا جـاء يسـتلم
إذا رأتـه قريـش قـال قائلهـا
إلـى مـكارم هـذا ينتهـي الكـرم

وانهـا لفرصـة سـانحة لشـاعر العـرب أن يمـدح سـيد العـرب والعجـم انهالـوا عليـه مـن كل جانـب فـاذا لـم يسـمعوا قالـوا: باللـه عليـك إلا رفعـت صوتـك. وأخـذ الفـرزدق يعلـي صوتـه ويلـوح بيديـه وكاد يشـغل الـكل عـن الطـواف، وصـار يشـير بيديـه وشـعره إلـى هشـام قائـلاً:

هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت تجهلـه
بجـده أنبيـاء اللـه قـد ختمـوا
اللـه فضّلـه قدْمـاً وشـرّفه
جـرى بـذاك لـه فـي لوحـه القلـم
عـمَّ البرَّيـة بالاحسـان وانقشـعت
عنهـا العمايـة والإمـلاق والظُلَـمُ

حتـى اتـى علـى اخـر قصيدتـه، ونـادى النـاس مـن كل جانـب: أحسـنت يـا أبـا فـراس، ابشـر بالجنـة وحسـن العاقبـة.

إن للصلاة أربعة آلاف باب

قال الامام أبوالحسن الرضا (ع): «إن للصلاة أربعة آلاف باب».

إن أسرار الصلاة وأهدافها وفلسفتها العميقة لا تبلغنها العقول ولا تحددها الأفكار فالعقول بالنسبة إلى ذلك ضيقة والأفكار محدودة لكن إدراك أشياء يسيرة من ذالك مثلا: لا تجوز الصلاة في الموضع المغصوب. أيها المسلم إن كنت مصلياً صحيحاً فلا تغصب ولا تأخذ ما ليس لك بحق.

قل من حرَّم زينة الله

قال الله تعالى: قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

وقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أُحلَّ الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. صدق الله العظيم

سلك الاسلام هذا الطريق العادل فأباح للمسلمين التجمُّل بأنواع الزينة والتمتع باللذات المشروعة على شرط الاعتدال (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين). وسمى سبحانه حرمان النفس مما أحله لها اعتداء (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) تحصل الضرورة باخذ الرجل زينته وتجميل مظهره اذا كان الزمان يقتضي ذلك.

حينما نلاحظ أحوال أئمتنا الطاهرين أنهم دعوة ودعاية إلى الله

تعالى بأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكونهم وتصرفاتهم وقيامهم وقعودهم وظاهرهم وباطنهم وأزيائهم ومظاهرهم. فمنهم من يختار الظهور بالخشن من الالبسة ومنهم من يختار الظهور بالأناقة والنعومة في مظهره ولبسه، فهم يختلفون في الشكل والصورة يتفقون في المرمى والغاية، وهما رضا الله وإصلاح الناس.

والسبب في اختلاف سِيرهم وعملياتهم هو اختلاف ظروفهم وأزمتهم. وعلى هذا يسقط كل أفكار توجه إلى أي فرد منهم وكل عتاب لم يسلكَ ما سلك أبوه أو جده. لما كان عهد أمير المؤمنين على عهداً حافلاً بالضعفاء برز عليه السلام مؤازراً في مظهره لهم ضارباً لهم المثل الأعلى في لبس ما خشن وأكل ما جشب. وكان بامكانه أن يسر هذه العبادة الراقية بين الزهد ولكن المصلحة دعت لاعلانها. فالضعيف كيف لا يثق عندئد من نفسه ويفرح بما يده ويحمد ربه ويشكره وهو يرى أمير المؤمنين ورئيس الدولة الإسلامية يلبس القميص المرقع والإزار المرقع ويشتري القميص باربعة دراهم لنفسه فيميز غلامه ويأمره باختيار أحسنهما بل انه ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة. عند هذه الحال لا شك أن القوي لا يطمع في باطله فليس لديه إلا العدل والحق ولا ييأس الضعيف من عدله؟ كيف لا وهو يدعم قوله (وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطُمريه، ومن طعامه بقُرصيه، وأعلم أنكم لا تستطيعون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد).

ولما عهد امامنا إلى الحسن الزكي عليه السلام صار إلى الرخاء واليسر والزين وارتدى الناس الملابس الفاخرة الثمنية وركبوا جياد الخيل وقل البؤس ورأى عليه السلام رضا الله ومصلحة الناس والتمكن من عودتهم إلى الدين وخبر بهم إلى الحق ان يزدان الثبات ويظهر بطيبها ورزقه تعالى.. فلبس الحلة الغالية الثمن وبرز بأحسن شكل وأجمل مظهر وأعظم هيبة.

إمامان إن قاما وإن قعدا

قال رسول الله (ص):«ولداي هذان إمامان إن قاما وإن قعدا».

لم يقصد بقوله (إن قاما وإن قعدا، قيام الجسم الطبيعي وقعوده فإن ذلك بعيد عن بلاغته (ص) ولكن قيامهما بأمر الخلافة وقعودهما عنها. فإمامتهما عليهما السلام ثابتة قاما أو قعدا لأن إمامتهما ليست باللباس المستعار..

الحسن والحسين حقيقة واحدة، فمن نفس الحسن انفتقت نفس الحسين ومن اسمه اشتق اسمه فكأنهما مخلوق واحد يحمل اسمي حسن وحسين. لانهما فيض واحد من نفس علي وفاطمة، وكان الله سبحانه قد قسم بيهما هبته وفيئه بالعدل فلا يزيد احدهما شيئا على الآخر.

الفرق بينهما بسيط لا يؤثر في تكييف طبائعهما، فالولادة متقاربة والتربية واحدة والاستعداد واحد. وغذائهما الجسمي الروحي واحد.

اذا كان الأمر كذلك فلماذا نهض الحسين وصالح الحسن.. في حين أن الناهض تنقصه أمور كثيرة أهمها قلة العدد، والمصالح يتوفر عنده الجند والقوة؟

هذا سؤال يردده الطاعنون على سبطي الرسول (ص) وكذلك يردده الجاهلون بحقائق الأحوال والظروف. والحق إن الحسن بن علي لو كان في زمن يزيد وفي مقام الحسين لنهض كما نهض الحسين والحسين لو كان مكان أخيه الحسن أي لو كانت المسئولية في عهد معاوية على عاتقه لفعل فعل أخيه عينا من الصلح والمسالمة ففعل كل منهما مستمد من ظرروفه المحيطة به دون شك. إن

يزيداً في الواقع غير معاوية أبيه فيزيد طائش مغرور أحمق لا يقف عن شيء من الفساد والإفساد ولا يتستر بأمر من أمور الباطل مقياسه الوحيد في الحياة شهوته ولذته وإرضاء نفسه على اي وجه اتفق.

ولو لم ينهض حسين الرحمة لكان قدوة للناس في السكوت عن الباطل والمنكر المنكشفين الظاهرين ولكان عذرً لمن يُدعى لمجاهدة الظالمين في كل عصر.. ماذا فعل والحسين ابن رسول الله قد استسلم وصمت أمام الظلم فمن أنا ومن أكون. ان حسيناً الثائر لم نجد له معارضة في صلح اخيه لمعاوية ولا لوم بل تقبله كما تقبله وأراده الحسن إنما عارض واستنكر من لم يدرك مقاصد العظماء ومن قصر عقله ونظره عن فهم الغايات البعيدة في ذلك الصلح.

نهضة الحسين كما قال السيد شرف الدين رحمه الله "فلما حان الوقت كانت شهادة كربلاء شهادة حسنية قبل ان تكون حسينية".

شدة الطموح في العلم

سأل العلامة الحلي الغني عن الوصف والاطراء ابنه فخر المحققين: بني ما تؤمل أن تكون في الحياة وأي درجة ترغب أن تصل اليها في العلم؟ قال: مثلك. فقال له إذن لا تدرك شيئاً.. أما قلت إنني كنت أؤمل ان أكون مثل جعفر الصادق. وهو بهذا يشير إلى شدة الطموح وكيف يجب أن تكون في طلب العلم.

الدربندي وناصر الدين شاه

حضر العلامة الدربندي صاحب الأسرار يوماً مجلس أحمد ناصر الدين شاه وكان الشاه له شوارب طوال، فلما نظر إليه الدربندي كان يحمل مقراضاً في جيبه، أخرج المقراض ووثب إلى الشاه بلا تردد ولا توقف في ذلك المجلس الرهيب معترضاً شارب الشاه من اليمين والشمال لأنه رأى أخلاقه ضد اسمه فاسمه ناصر الدين وتلك أخلاق خاذل الدين.. وحيث إن الدربندي لا تأخذه في الله لومة لائم لم يتوقف عن الشاه في قرض شواربه، وغضب الشاه لذلك وحملق عينيه والتفت لصاحب تلك الجرأة، واذا هو الدربندي - فقال له: لولا فضيلة العلم لما تركتك. فقال الدربندي: لولا النهي عن المنكر لما نظرتك.

نقلا عن استاذي الشيخ عبدالله آل طعان

سمعت من أستاذي في النحو العلامة الشيخ عبدالله آل طعان ، إذ كان يحدثنا يوماً بعد الدرس قال: سافر احد العراقيين إلى أوربا طلباً لسائر العلوم، فجلس يوماً مع أوروبي، فأخذ الغربي يخبر عن نفسه مفتخراً بانه اكتشف سراً أنفق في اكتشافه عمره الثمين، وهو أنه اكتشف الخنزير اذاولغ الإناء لابد أن يغسل بالتراب لان الخنزير يبلع جراثيم بولوغة في الإناء. فقال العربي المسلم يا أستاذ انت مسبوق على هذا.. قال من سبقني؟ وكان يصحب معه رسالة لأحد الفقهاء، فأخرجها إليه وقال انظر.. فلما قرأ العربي الحكم الشرعي في الرسالة إذا ولغ الخنزير في الإناء، الخ.. فقال عندكم هذه العلوم وتأتي إلى أوروبا لتدرس؟ انتهى.

إنها لتدل دلالة واضحة على أننا لا نلتفت إلى ما في عباداتنا من أسرار عظيمة ومقاصد عالية من اجتماعية وطبية وأخلاقية ونفسية.

جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك

قال لقمان الحكيم لابنه فيما أوصاه به: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك.. فإن الله يحي القلوب بنور الحكمة كما تحيا الأرض بوابل السماء.

حكمة بالغة أطلقها رجل عظيم، أطلقها إلى العالم لا إلى ابنه فحسب لتسير عبر القرون والاجيال منيرة كالشمس في أفق السماء ولتلقن الإنسان الخير والفضيلة وتخلصه من العيش في الظلمات وتجعله سعيداً في هذه الحياة جميل ذكر العاقبة متحرراً من الشهوات والاخلاق الذميمة.

أي والله، إن القلوب لتحيا من موتها بنور الحكمة (تحيا كما الأرض بوابل السماء).

حرص الكتاب والمؤلفون والشعراء على اقتباس هذا المعنى الجليل فصاغوه في قوالب مختلفة قال بعض الشعراء

العلم يحي قلوب الميتين كما
تحيا البلاد إذا ما مسها المطر

الذكاء ليس بالولادة

لا يفوتني في مثل هذا المقام أن أفند بعض النظريات الخاطئة التي سادت الأذهان في حين لم يكن لها نصيب من الصحة. يعتقد كثير من الناس أن الذكاء نصيب وحق لبعض الناس وبالولادة نصيب لبعض آخر، فكثيراً ما تسمع من يصف الآخر بالبلادة التي ليس لها علاج أبداً، ولا شك أن في مثل هذه العقيدة كثير من الضرر الاجتماعي، إذ تسبب الجمود والشلل الفكري، على أن الدراسات العلمية أثبتت فساد هذه النظرية. قرأنا تراجم زعماء العالم وعباقرة التاريخ فلابد أن نكون قد عثرنا في أثناء مطالعاتنا على رجال لم يكن لهم من شأن في يوم ثم تفجروا بعد ذلك ذكاء أو عبقرية تخلدهم في التاريخ مدى الدهر.

اذاً فليس الذكاء ملكاً أو نصيباً أو منحة لطبقة من الناس وليست البلادة نصيباً لطبقة أخرى، فمن تعلّم علم ومن جد واجتهد وجد ومن طرق الباب فتح له بإذن الله ومن سعى وراء المعارف أدرك قدر سعيه منها.

وإن النصائح والإرشادات التي تحث على طلب العلم من المهد إلى اللحد لم تُقدم لفريق من الناس وإنما تقدم وتُساق إلى مجموعهم. ان المرء يولد جاهلاً بكل شيء مما يتعلق بدنياه واخرته ومعاشه ومعاده فان تقدم إلى العلم وسعى إلى المعرفة وإلا بقى مكبلا بقيود الجهل.. قال الشاعر:

تعلم فليس المرء يولد عالماً
وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبيرَ القوم لا علم عنده
صغير اذا التفّت عليه الجحافل

بيد أن هناك حقيقة، إذ لا نكاد نجد اثنين يتساويان في الذكاء، فكيف نفهم هذه الحقيقة ؟ يقول العلماء الاختصاصيون: إن المخ والمخيخ اللذين هما عضوا الذكاء في دماغ الإنسان يتكون من تجاعيد وهي التلافيف التي في الدماغ كثيرة متشابكة ذات عقد تتفتح عندما يشتغل المرء بالأمور الفكرية كالتمارين الرياضية مثلاً أو يمارس العملية التي تثير الفكر وتتطلب الدقة كالأعمال الميكانيكية، وتنتشر هذه التجاعيد حين يلجأ إلى الكسل والركود الذهني.. لذلك يحسن للذي يعاني بطئاً في الفهم أو صعوبة في الإدراك أن يروّض نفسه على المثابرة في العمل والاستمرار في التفكير، فإذا ما فعل هذا فسرعان ما يجد نفسه سريع الفهم قوي البديهة لا فرق بينه وبين أولي الذكاء والخارق والعظماء النادرة.

إن الاستمرار على التفكير للانسان بمنزلة الاستمرار على تزييت الماكنة فالآلة الحديدية إذا أهملت تقف عن الحركة فتعدم الفائدة وهكذا الحال في المخ والمخيخ. نعود حيث بدأنا فنقول: قول لقمان: وزاحمهم بركتبيك كناية عن المداومة على مجالسة العلماء والأخذ عنهم، كناية عن شدة الحرص واستفراغ الوسع في سبيل العلم؟

اطلبوا العلم ولو في الصين

إن قول الرسول الأعظم (ص): اطلبوا العلم ولو في الصين، كناية أيضاً عما يتحمله الطالب للعلم في ذلك السفر النائي البعيد لأن الصين معدن العلم والدرس والتدريس والعلم يطلب منها، والفرض توجيه المسلمين وحثهم واخبارهم بأن العلم لا يأتي عن طريق

الراحة والترف والتلذذ والأنس بالوطن والأحباء والأصدقاء، وبهذا جاء الحديث القدسي:

«وضعت العلم في الجوع والجهد وهم يطلبونه في الشبع والراحة فلا يجدونه».

ينقل عن بعض العلماء السابقين الذين رفعوا إلى أرفع المراتب أن فهم الشخصية الإنسانية ليس لرقيها وتقديمها عامل سوى العلم ولذلك أكثر القرآن الكريم من بيان فضيلة العلم والعلماء ومقامهم الرفيع بآيات كثيرة. قال تعالى: «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات.. شهد الله أن لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط.. وقل رب زدني علماً.. إلى غيرها من الآيات الحاثة أعظم الحث المُرغّبة أشد الترغيب، أضف إى ذلك ما تواتر عن الرسول الأعظم (ص) وأهل بيته عليهم السلام من الأخبار. قال رسول الله (ص): «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، مكنياً عن طلبه طول الحياة. وقال: اطلبوا العلم ولو في الصين. مكنيا عن طلبه في جميع الأمصار وأبعدها».

الابتعاد عن التحجّر الفكري

وقال الإمام جعفر الصدق (ع):«لا أحب أن أرى الشاب منكم غادياً إلا في حالتين إما عالماً أو متعلماً وإن لم يفعل فرّط وإن فرّط أثِم وإن أثِم دخل النار».

بتلك الآيات وهذه النصائح والتعليم، ابتعد الإسلام بأهله عن

الجمود العقلي والتحجر الفكري والتبعية، إن الإسلام يستنكر على أهل التقليد الأعمى الذين يتمسكون بالرأي لا لأنهم عقلوه بل لأن آباءهم فعلوه.. قال تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون». إنك إن نظرت بإمعان رأيت أنه ما ابتلي الدين الإسلامي بشيء كالتقليد الأعمى، فالتقليد الأعمى هو الداء العضال والمرض القتّال، وبالتقليد الأعمى استحلت الدماء المحرّمة وأزهقت النفوس البريئة وبالتقليد الأعمى عمل من عمل عكس أوامر الإسلام ونصوص الإسلام، وبالتقليد الأعمى انتهكت حرمات الدين، وبالتقليد الأعمى لعن أعظم رجل وأجلّ مصلح بعد سيد البشر محمد (ص) على المنابر ألف شهر حتى شبّ على ذلك الصغير وهرم الكبير.

لقد كان للتقليد الأعمى أسوأ الأثر في العالم الإسلامي نشأ عليه الصغير وهرم الكبير وتربت عليه النفوس، حتى أصبح القول والإرشاد لا مفعول له، وأصبحت النصائح والتنبيهات والخطب والإرشادات لا قيمة لها في الأمة المرحومة فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولأجل هذا أبرز أبوعبدالله الحسين إلى الأمة الإسلامية صفة وتطبيقاً لأن القول لا مفعول له فالأمة قد لعبت بها التأويلات والأقلام المأجورة والألسن الكاذبة (بحقه). وهل يمكن أن يكذب الحسين وهل يمكن أن لا تأخذ موعظته مكانها من النفوس وتفعل فعلها في العالم ورأسه على رأس الرمح ينطق تالياً لكتاب الله: وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. ويخاطب حامله: فرّقت بين رأسي وجثتي فرّق الله بين رأسك وبدنك. وتُرعب نساؤه وأطفاله والعقلية زينب تخاطبه شاكية إليه ما يصنع بها الأعداء.

أسـفاً لـذات الصـون حاسـرةً تـرى
وقـع السـياط علـى المتـون مؤثـرا
وتضـج تنـدب عزهـا كهـف الـورى
أنعـم جوابـاً يـا حسـين أمـا تـرى
شـمر الخنـا بالسـوط كسّـر أضلعـي
أأخـي ذاب القلـب مـن فـرط العنـا
وعلـيّ حرمـت المسـرة والهنـا
يـا ليـت عمـري كان عاجلـه الفنـا
فأجابهـا مـن فـوق شـاهقة القنـا
قضـي القضـاء بما جـرى فاسـترجعي
أختـاه يـا بنـت البتـول وحيـدر
قـد فـات عتبـي والملامـة فاعـذري
مهمـا تـري بعـدي عليـه تصبّـري
وتكفلـي حـال اليتامـى وانظـري
ما كنـت أصنع فـي حماهـم فاصنعي

الحث على العمل والسعي في الحياة

قال الله تعالى: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور. وقال تعالى: فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله. وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله. صدق الله العظيم

غير خفيّ أن التربية من الوسائل الأولية للنظام الإسلامي في أدوار الإعداد والتهيئة لتكوين شخصية الفرد المسلم أو بناء المجتمع الإسلامي، لأن التربية هي الطريقة المفضلة في تكوين الشخصية الناجحة وفي بناء المجتمع الفاضل، لأنها تغلغل المبدأ الذي تريده والفكرة التي تحاول تطبيقها في الجيل الجديد، وإن من أهم أقسام برامج التربية في الإسلام الحث على العمل والسعي في الحياة.

تقدير العمل والعامل

إن البطالة من أجلى صور العجز والخمول وأقوى أسباب الفقر والمرض والجهل، كما إنها من أخطر الأمور وأسوئها أثراً على الأمة وقد ذكر أحد الشعراء بعض وجوه خطرها بقوله:

إن الفراغ والشباب والجده
مفسدة للمرء أي مفسده

والبطالة كما تفسر في اللغة هي (التعطل والتفرغ من العمل) ومن أظهر أسبابها فقدان رغبة القادرين على العمل رضىً منهم بعيشهم الزهيد وبحياتهم الدانية كما هو واقع الكثير من المجتمعات البدائية، وقد حاربها الإسلام محاربة عظيمة بل أوجد الوسائل الكافية للقضاء عليها، وذلك بتوجيه أبنائه ومعتنقيه إلى الإنتاج والاستثمار ويدفعهم إلى العمل دفعاً عن طريق تقدير العمل والعامل، وإحداث الرغبة للعمل في نفوسهم وطبعهم على حبه، لأن الإسلام هو المقدر الأول للقيمة الإنسانية والحافظ الأعظم للكرامة البشرية المثلى، فهو لا يريد للمسلم أن يعيش كلاً على غيره مثلوم العزة مخدوش الكرامة.

وأستشهد لك ببعض النصوص الواردة في الموضوع: فمن ذلك الآيات الآنفة الذكر: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا الآية، فانتشروا في الآرض ... وآخرون يضربون ..

ورد عن أهل بيت العصمة عليهم السلام: أيها الناس عليكم بالعمل في النشاط. إياكم والكسل فإن من كسل لم يؤدِّ حق الله. أياكم والتسويف في العمل، بادروا به إذا أمكنكم ما كان لكم من

رزق فسيأتيكم على ضعفكم. إياك والكسل والضجر فإنهما يمنعانك من حظك في الدنيا والآخرة.

ولا تكسل عن معيشتك فتكون كلاّ على غيرك. إني لأبغض الرجل أن يكون كسلاناً في أمر دنياه. إن الأمور لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتج بينهما الفقر. إن الله عز وجل يبغض العبد النوّام الفارغ. ملعون من ألقى كله على الناس. إن الله يحب المحترف الأمين. اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.. إلى غيرها مما جاء في الحث على العمل وصون الإنسان لكرامته كإنسان وإثبات وجوده وأنه عضو عامل في المجتمع، يعمّر هذا الكوكب ليستفيد ويفيد.

هذا منطق الأحرار والعظماء وهذه نغمتهم. ولنلقِ نظرة على سيرتهم المثلى لنقتبس منها ضوءاً ينير لنا الطريق ويدفعنا نحو التقدم والنجاح. إن سيرة العظماء والأحرار المهيئين من الله تعالى لإنقاذ البشرية وتثقيفها تتنافى وسيرة الأغلبية الساحقة من المجتمعات قبل الإسلام حتى المفكرين والحكماء منهم عدا الأنبياء فإنهم لا يعاتبون بما لهذه الكلمة من مفهوم، فقد كانت المجتمعات تعتبر العمل وظيفة العبيد ومهنة الطبقات السفلى من المجتمع، ولذلك احتقرت العمل والعمال إلى حدّ بعيد، حتى أفلاطون الفيلسوف كان يرى أن العمل من خصائص طبقة العبيد.

أما العظماء والقادة الإلهيون فإليك سموّ نظرتهم إلى قيمة العمل ومنزلة العمال: اتخذ داود النبي من صنع الدروع عملاً له وكان يتعيش بأثمان سفائف الخوص، قال أمير المؤمنين عليه السلام: وإن شئت ثلثت بداود صلى الله عليه وسلم صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص الشعير من ثمنها، وكان الرسول

الأعظم (ص) يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط وكان يرعى غنم أهله بأجياد (وادٍ مما يلي الصفا) وقال جابر بن عبدالله الأنصاري (رض): كنا مع النبي نجني الكبات وهو (ما نضج من تحت الإراك) فقال (ص): عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه فإني كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم، قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: وما من نبي إلا وقد رعاها. وروي عنه (ص): بعث موسى وهو راعي غنم وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد.

وعلى هذا النهج الأقوم وسيرة الإنسانية العليا كان أئمة أهل البيت (ع) فقد روي عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه قال: رأيت أبا الحسن الكاظم (ع) يعمل في أرض له وقد استنقعت قدماه في العرق، فقلت له: جعلت فداك أين الرجال؟ فقال: يا علي عمل باليد من هو خيرٌ مني ومن أبي في أرضه، فقلت له: من هو؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وآبائي كلهم قد عملوا بأيديهم وهو من عمل النبيين والمرسلين والصالحين.

وعن أبي عمرو الشيباني قال: رأيت أبا عبدالله الصادق وبيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبب، فقلت: جعلت فداك أعطني أكْفِك، فقال لي: إني أحبّ أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة.

وإلى جنب حث الإسلام على العمل وتبيين قيمته الحيوية نجده قد سبق الكل إلى وضع نظام للعمل والعمال. إن الإسلام متكفل بجميع لوازم الحياة وقضاياه الإنسانية، ونظام العمل والعمال في الإسلام نظام متكامل شامل عادل من شاء الوقوف عليه من المسلمين وغيرهم فليراجع كتب ومدونات الفقه الإسلامي، ولو طبق هذا النظام لانحلت جميع مشاكل العمل والعمال ولبلغت الأمة القمة في السعادة والنجاح. وفي عقيدتي أن البشرية لابد

وأن ترجع إلى الإسلام بعد أن ترى فشلها الذريع في تطبيق ما سنت من نظم وما وضعت من مبادئ، ولابد أن تقول معنا آنذاك مؤمنة مصدقة (إن هدى الله هو الهدى) إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. لأن الحق سيتضح لكل فرد على وجه البسيطة، ولأن الباطل سينكشف غطاؤه وتبدو جرائمه وقبائحه، وستكون لله عز وجلّ الحجة البالغة على خلقه، فعندذاك من تقيد لعاطفته والتزم لعصبيته كان من الهالكين والخاسرين، وسيأتي يوم في هذه الحياة يكتسح كل خبث من على وجه الأرض وكل إجرام ويقضي على الشقاء والضلال ولا يترك إلا الطيب والصلاح والسعادة والرشاد، ويكون الدين كله لله، ويظهر الله نبيه على الدين كله.

بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً

قال رسول الله (ص): بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل ومن هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس.

للغربة معنيان أحدهما لغوي والآخر مجازي، فلفظة غريب تأتي بالمعنى اللغوي تارة وبالمعنى المجازي تارة أخرى. فاللغوي هو أن يكون الإنسان بين قوم لا يعرفهم ولا يعرفونه وتستمر غربته حتى يعرفهم ويعرفونه ويخالطهم ويخالطونه فحينئذ تنتفي ويعود غير غريب بينهم. هذا هو المعنى الأصلي للغربة والغريب. أما المعنى المجازي الاصطلاحي فهو كون الإنسان مخالفاً لمن يعيش معهم في الحالة المادية والمعنوية كالفقير بين الأثرياء وإلى هذا النوع من الغربة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: الفقر في الوطن

غربة والغنى في الغربة وطن. وكالمؤمن بين الفاسقين والعالم بين الجهال أو في المجتمع الجاهل، وكالبغيض عند أسرته وأهله كما أشار إلى ذلك الشريف الرضي (ره) مبالغاً حيث خصص الغربة بهذا فقط بقوله:

ليس الغريب الذي تنأى الديار به
إن الغريب غريب غير مودودِ

ونسبة الرسول (ص) إلى الغربة في كلمته الآنفة الذكر ونسبته المتدينين المتورعين إلى الغربة غرضه بذلك المعنى المجازي. والحقيقة العرفية أو المعنى المجازي هو المستعمل غالباً أما الحقيقة اللغوية فمهجورة. فالصلاة مثلاً عند اللغوي هي مطلق الدعاء وقد قيدت وخصصت استعمالاً وشرعاً بالصلاة اليومية التي فرضها الله على المسلمين، والحج لغةً هو القصد إلى معظّم فقيّد وخصّص بالسفر إلى بيت الله الحرم فإذا قيل: حج فلان أو: فلان يحج، لا يتبادر إلى الذهن إلا إلى أنه قصد بيت الله الحرام فلا يستفهم السامع: أي مكان حج، والزكاة عند اللغوي هو النمو والنظافة فقيّدت بما فرض على المسلم إخراجه من ماله. فالمعنى المجازي العرفي للغربة كاد يكون هو الحقيقي، ولنلقِ نظرة على غربة الدين الإسلامي في مبدئه وفي العصر الحاضر.

إن غربة الإسلام في بدايته أمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان فقد صدع الرسول (ص) بدعوته البكر بين أقوام همج لا يعرفون للحياة الحرة الكريمة معنىً ولا قيمة.. فقد كانوا: فوضويين خياليين متمزقين بكل ما لهذه الألفاظ من مفهوم ليست لهم أية تشكيلة اجتماعية أو أنظمة عامة أو رابطة صحيحة، إذا أخلفت السماء أو منعت درها ومنعت الأرض خيرها ارتزقوا من طرق السلب والغارات وربما

ينتهي الأمر إلى حرب دامية تذهب ضحيتها الألوف من الأرواح. بدو ينقسمون إلى قبائل أو أسر لكل منها شيخ أو أمير، هذا الأمير يغرس حربته إلى جانب خيمته علامة ودلالة على رئاسته وبيده تكون سلطة تقرير الحرب أو السلم.

أما العقيدة فحدث ولا حرج عما كانت عليه من السخف والضلال، فأبرز أديانها المجوسية والصابئة فهذان الدينان هما اللذان سادا بكثرة العالم الشرقي. وهناك الكثير من الأديان سواهما كاليهودية والنصرانية والدهرية والزنادقة والوثنية، أما مكة فالديانة فيها عبادة الأوثان حتى بلغ عدد الأصنام على الكعبة 360 صنماً ومنهم من تعصب للملائكة فعبدها ومنهم التائه الذي يلوي على دين. أما العادات فلا تسل عن وحشيتها وقسوتها مثل قتل الأولاد خشية الإملاق ووأد البنات بغير حق وغيرها وغيرها مما طفح به التاريخ.

بين هؤلاء الهمج المفتتنين المتمزقين الضالين يرتفع صوت الفضيلة والقداسة منادياً: قولوا لا إله إلا الله، فلم يأنسوا للدعوة الحقة والحرة بل شق عليهم سماعها واعتبروا ذلك الهادي المصلح خارجاً على الوضع العربي والعقائد الأصيلة، مخالفاً للحالة الاجتماعية فنسبوا دعوته الإلهية إلى المنكر والابتداع وقالوا: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب). فكذبوه ونسبوه إلى السحر وقاطعوه بكل ما للمقاطعة من معنى، وبرز المنقذ الإلهي الأعظم غريباً وبدت دعوته السامية العليا غريبة بالنسبة إلى ذلك المجتمع الوحشي الهمجي الجاهل الساقط وهذا هو معنى غربة الدين عندما بدأ كما بين (ص): (بدأ الدين غريباً).

أبت حكمة الله وعدله أن يترك ذلك الخلق العظيم شذاذاً فنصر نبيه وأظهر أمده رغم معاداتهم ومحارباتهم له، فقد كانوا يحيكون

المؤامرة بعد الأخرى للقضاء على شخصية الرسول التي ينحصر فيها الإسلام. وقد تم انتصاره وظهوره عليهم بعد عقد المؤتمر الأكبر لقتله (ص) برئاسة أبي سفيان وأبي جهل وأي لهب ومن كان على شاكلتهم في العداء والتعصب العظيم وذلك في دار الندوة وكان قد بناها قصي بن كلاب، وكانت قريش تجتمع فيها للتشاور في المسائل المهمة والأمور العامة ولا يسمح للرجل أن يحضرها ما لم يبلغ الأربعين إلا من ينحدر من ذرية قصي، ولعل هذا نظر إلى أن أبناء قصي كاملوا العقول.

بعد أن اجتمعوا وتبادلوا الرأي في كيفية قتل محمد. قال أبوالبختري: (احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به الموت) لكن هذا الرأي حصل له معارض من شيخ عدي قد حضر الاجتماع حيث قال: لا والله ما هذا لكم برأي والله لو حبستموه ليخرجن في أمره من وراء الباب إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم حتى يغلبوكم على أمركم. فتقدم الأسود بن ربيعة برأي هو: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فوالله ما نبالي إلى أين ذهب.

فقال البختري: ما هذ برأي أما ترون حسن حديثه وحلاوة منطقه وعليته على قلوب الرجال بما يأتيه والله لو فعلتم ذلك لم يؤمن أن يصير إلى حي من أحياء العرب فيغلب عليهم بقوله وحديثه حتى يتابعوه ثم يشير لهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم ويأخذ أمركم من أميركم ويصنع بكم بعد ذلك ما أراد. وكان أبوجهل بن هشام أدهى وأعقل الحاضرين فكان لعقليته صامتاً ليسمع الآراء والإشارات قبل أن يبدي رأيه الخاص. فبعد أن رأى من رأى واعترض من اعترض قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً حسيباً في قومه ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل

واحد فيقتلونه فنستريح منه ويتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب القبائل فيرضوا منا بالدية فنعطيها لهم.

فرضوا بهذا الرأي وقرروا الهجوم عليه ليلاً ليقتلوه في فراشه، لكن المؤتمر انتهى إلى الفشل والخسارة حيث أطلع الله عبده محمد على ذلك (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمركون ويمكر الله والله خير الماكرين) فأبات الرسول علياً على فراشه بأمر الله ووثب إليهم علي ساعة الهجوم كأنه الأسد الغضبان فرجعوا خائبين، وليس ذلك لأنهم لم يروا محمداً فحسب ولكن لما أبدى عليه من البسالة والشدة، فإنهم يعرفون علياً يقول قول محمد ويفعل فعله وهو ناصره ومعينه منذ نعومة أظفاره. وانتصر محمد وسار الإسلام في خط الزمن الطويل وإذا به هو الرأي السائد وإذا بكلمته هي العليا وإذا برجاله وأنصاره ومعتنقيه ملء الزمان والمكان وانتفت غربته. لكن هذا هذه الصورة، أعني: كونه ليس غريباً، باقية الآن؟ أم طرأ عليها شيء؟

(الواقع إن الإسلام بدأ يشكو الغربة من جديد بل أصبح غريباً بوضوح فبدا في بعض البلدان المسلمة بالاسم دون المعنى غريباً مثل ما بُدئ، رغم أنه في عصر الذرة المنير قد دوت هتافاته عاليةً في صفوف الناس وانكشفت حكمه الباهرة لذوي العقول بمقدار اتساع الآفاق العلمية في مختلف الشئون، حتى إن بعض مفكري الغرب بدأوا ينشرون للملأ عظمة هذا المبدأ الرصين وأسرار تعاليمه القدسية، رغم هذا الذيوع والانتشار لم يجد من يعمل بأحكامه أو يطبق أوامره كما يريد.

هذا كتابه والمصدر الأول إليه قد طبق أرجاء الدنيا عن طريق الإذاعات صادعاً بالدعوة في كل بيت وفي كل مقهى ومنتدى

ومجمع بكره وعشياً، قارعاً بآياته البينات مسامع كل من عرف لسانه وأحاط بلغته لكن الكل مع ذلك بمعزل عن العمل والتطبيق حتى لكأنه إذ يتلى نغمة رقيقة يستلذ سماعه وحسب. أليس هذا معنى الغربة المتناهية التي أخبر عنها الرسول الأعظم (ص)؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون، لم يبق في الدنيا من يستجيب نداء الإسلام ويصغي لحقائقه اللهم إلا نفر يسير وشرذمة قليلة أعني العلماء العاملين الذين يواصلون نشاطهم وسيرهم الإصلاحي كثر الله في المسلمين هذا النوع وأخذ بأيدينا جميعاً إلى سبيل الهدى والصواب.

لكن هل تبقى الأوضاع الخُلُقية والاجتماعية والدينية في الحالة التي هي عليها أم تتحسن يا ترى، الواقع أنها لا تتحسن بل تسوء وتشتد في المستقبل أكثر مما عليه في الماضي وتكون العاقبة والعياذ بالله أن تمتلأ الدينا ظلماً وجوراً وفساداً ومنكراً، أما إصلاح العلماء وجهاد الدينيين وإرشاد المرشدين فمخفف من حركة سير الفساد ولا أكثر.

وإذا ملأت الدنيا فساداً وعادت الغربة للدين بأجلى صورة هناك يخرج من يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، هذه عقيدتنا عليها نحيا وعليها نموت إن شاء الله تعالى، وهي في نفس الوقت تسلية للمؤمن والرجل الديني الصحيح عندما يضيق صدره وتسأم نفسه الحياة من جراء ما يرى ويسمع من مناكر وقبائح تُعمل وجرائم تُرتكب.

الحياة المنتجة المؤثرة لهي الحياة الصادقة المثلى

أن الوجود المثمر لهو الوجود الصحيح وإن الحياة المنتجة المؤثرة لهي الحياة الصادقة المثلى. ولذلك الوجود وهذه الحياة يتحقق الخلود والفوز في الحياتين. فإن من واضح الأمور أن تقدم الأمة وقوتها منوطان بالفرد في سلوكه فكلما كان أفرادها مشبعين بروح التعاون والتضحية صادقين في أقوالهم مخلصين في أعمالهم كانت الأمة في أجمل أدوارها.

أما إذا عدمت هذه الصفات فأصبح الفرد يعيش لنفسه فقط متسلحاً بالأنانية والأثرة وتقديم مصالحه على مصلحة المجموع مقتدياً بالشاعر القائل: إذا كنت ظمأناً فلا نزل القطر، فإن النتيجة هي تضعضع الأمة وتداعي أركانها وبالتالي اندثارها.

ان الانسان غير خالد في هذه الحياة، ومن الهوان عليه والاحتقار لنفسه أن لا يكون لوجوده غاية ومعنى، ويرى أن من الاحترام لنفسه والتقدير لحياته أن يجعل وجوده نافعاً للآخرين فيكون كالشجرة المثمرة، وبحق أن يكون من خير الناس فإن خير الناس من انتفع به الناس ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

إن الواجب الديني والأخلاقي والاجتماعي يهتف للمسلم ان لا يعيش على حساب الغير، أن لا يؤثر مصلحته على مصلحة الأمة، أن لا يستجيب لانانيته، بل ينبعث نحو المصلحة العامة والتكاتف والتعاضد فإن الفرد جزء المجتمع والجزء كما يقول أهل الفلسفة لاقيام له إلا بالكل.

إنما يخشى الله من عباده العلماء

قال الله تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الباب) وقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

من أوضح الأنباء أن لفظ العلم يتسع لمفاهيم كثيرة، فليس المراد بالعلم الذي يدعو إليه الإسلام هو الديني فقط بل كل علم يحرر الإنسان من الجهل بأي أمر كان، سواء في العقائد الدينية أم في الشئون الأخرى. نعم الأحوال أن في طلعية المفاهيم مفهوم علم الفقه: إن نظرة الدين الإسلامي بعيدة جداً عندما يوجه المسلمين إلى العلم، فهو يوجههم إلى كل ما وصل إليه العلم، ليكونوا أبصر بعظمة الله وقدرته، تلك العظمة وتلك القدرة تتجليان في آيات صنعه وبديع خلقه.

وليست هذه هي الحكمة في ذلك فحسب، ولكن هناك حِكَماً أخرى تتبع أصناف العلم من منافع مادية ومعنوية تاتي من استخدام حقائق العلم في شئون الانسان فيه ومصالح البشرية.

فالعلوم على اختلاف أنواعها كلها لطبيعة وعلم الحياة وعلم النفس وعلم التاريخ والجغرافيا والاجتماع وغيرها مقصودة دون أي شك بجانب العلم الديني من الحث على العلم. قال تعالى: ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذالك لآيات للعالمين. وقال تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء)

فغير خفي أن المراد - كما يتضح من سياق الآيتين - بالعلماء هنا العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله فيها فيما أشارت إليه الآيتان الكريمتان، والموضوع هنا هو نفس موضوع العلم الطبيعي، فانه يبحث عن الأشياء الكونية من حيث طبائعها وخواصها والعلاقات بينها، واعلم أن طريق العلم بسر نزول الماء من السماء هو علم الطبيعة، وطريق معرفة تركيب الماء وفوائده علم الكيمياء، وكذا معرفة الإنبات والإثمار بعلم النبات، ولا يُدرى ما الجبال وما طرائفها البيض والحمر والسود الا بعلم طبقات الأرض، اما طريق معرفة اختلاف أجناس البشر فهو علم أصل الشعوب. وكذا اختلاف أجناس الدواب والأنعام يعرف بعلم أصل الحيوان. إن العلم بأسرار الطبيعة وحقائق المخلوقات يبعث على خشية الله تعالى

والآية الكريمة حصرت الخشية في العلماء المؤمنين الذين يتدارسون الآيات الكونية. انظر إلى الذين أنزل القرآن في بيوتهم وعلموا تأويله وأحاطوا بأسراره وحقائقه ومحكمه ومتشابهه كيف كانت حالاتهم وعلاقاتهم مع ربهم، واسمع أمير المؤمنين وإمام التقى علي بن أبي طالب كيف يخاطب ربه (سبحانك اللهم وبحمدك من ذا يعرف قدرتك فلا يخافك ومن ذا يعلم ما انت فلا يهابك ألفت بقدرتك الفرق وفلقت برحمتك الفلق وانرت بكرمك دياجي الغسق وأنهرت المياه من الصم الصياخيد عذباً وأجاجاً وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجاً وهّاجاً من غير أن تمارس فيما ابتدأت به لغوباً ولا علاجا)

اما علم النفس فقال تعالى (وفي أنفسكم فلا تبصرون) فالنظر في النفس والتفكير فيها هو علم النفس فعلم النفس هو معرفة الغرائز والميول والبواعث في النفس الإنسانية. أما علم الحياة فهذا هو القرآن يوجه نظر الإنسان إلى نفسه وكيفية تكون

فـي الرحـم، ومـن النظـر فـي أصـل التكويـن يكـون التوصـل إلـى علـم الحيـاة قـال تعالـى: (فلينظـر الإنسـان مِـمَّ خلـق، خلـق مـن مـاء دافـق يخرج مـن بيـن الصلـب والترائـب) ويعرف تقلـب الجرثومة الإنسـانية فـي أدوار الخلـق وتطورها ونحوها اليـوم بعلـم الحياة، أو (البيولوجيا). وتجـد القـرآن الكريـم يوجهنـا إلـى علمـي التاريـخ والاجتمـاع بـكل مـا فيهـا مـن بحـوث، حيـث يدفعنـا إلـى البحـث فيمـا كانـت عليـه الامـم السـالفة مـن قـوة السـلطات واتسـاع العمـران، ثـم البحـث عـن عاقبتهـم ومـا آلـو إليـه باتبـاع الشـهوات ومخالفـة أوامـر الخالـق مـن دمـار وهـلاك.. وقـال تعالـى: (أَفَلَـمْ يَسِـيرُوا فِـي الْأَرْضِ فَيَنظُـرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِـمْ كَانُـوا أَكْثَـرَ مِنْهُـمْ وَأَشَـدَّ قُـوَّةً وَآثَـارًا فِـي الْأَرْضِ فَمَـا أَغْنَـىٰ عَنْهُـم مَّـا كَانُـوا يَكْسِـبُونَ) وقـال تعالـى: (قـل سـيروا فـي الأرض فانظـروا كيـف كان عاقبـة المجرميـن).

إذن فالعلـوم ليسـت محّرمـة ولا محظـورة بـل مباحـة والقـرآن يوجـه إليها لأن العلم فـي أي شـيء كان يبصر الإنسـان بعظمة خالقه ويزيده إيمانـاً بالمبـدع سـبحانه.

فالعلـم يجمـع فنونـاً ومذاهـب فـي الحقيقـة لا يدعـو إلـى الكفـر باللـه ولا إلـى الضـلال ولا الشـر وإنمـا يدعـو إلـى الايمـان والخيـر ونفـع البشـرية، إذا رأيـت مـن لا يسـتفيد مـن العلـم إلا الضـلال وإيـذاء البشـر فذلـك ليـس مـن العلـم وإنمـا الاسـتيلاء مشـاعر الشـر عليـه وانعـكاس الموازيـن الإنسـانية عنـده.

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

قلنا في مستهل بحثنا هذا إن لفظ العلم يتسع لمفاهيم عديدة، إلا أن في طليعة هذه المفاهيم مفهوم علم الفقه، فإن معرفة الواجب الفردي من صلاة وصيام وحلال وحرام وأخذ قواعدها ومنابعها هو في الأهمية بمكان سابق. قال الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة ممنهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلم يحذرون) وإلى أهمية علم الفقه وتقدمه على كل العلوم أشارات أخبار أهل البيت عليهم السلام قال رسول الله (ص): عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونو أعرابا فان من لم يتفقه في الدين لم ينظر الله اليه يوم القيامة ولم يزك له عملاً.

كان الرسول الأعظم (ص) وكذلك أهل البيت عليهم السلام مجاهدين في سبيل العلوم وتعليمها إضافة إلى ما القوا من نظريات في العلم وما سجلوا من احاديث في فضله، وقد جعل النبي (ص) مسجده مقر نشر العلم ودراسته وتعليمه لأفراد المسلمين وجماعاتهم، والمساجد الإسلامية إلى يومنا هذا في المناطق العلمية معمورة بنشر العلم والأبحاث الدينية. دخل المسجد (ص) يوما فوجد جماعة يشتغلون بالعبادة والصلاة بينما كان في الجانب الآخر خلق تشتغل بالدراسات العلمية فقال (ص): (أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما هؤلاء فيعلّمون الناس وإنما بعثت معلماً) ثم عدل إليهم وجلس معهم لأنهم يعملون لخير الإنسانية باجمعها.

وقال (ص): اطلب العلم ولو في الصين. وقال: طلب العلم

فريضـة علـى كل مسـلم ومسـلمة.

ان رسـول الله (ص) يرشـدنا إلى أن نطلـب العلـم لا للاطماع المادية ولا للجـاه والاسـتعلاء ولا للمواقـف والافتخـار ولا للمجادلـة والظهـور، بـل لكـون العلـم بذاتـه فضيلـة وكمـالاً وخدمـة للانسـانية التائهـة يجـب علـى الطالـب ان يثابـر ويبـذل مـا أوتـي مـن حـول وقـوة فـي مهمتـه الدراسـية متسـلحاً بالايمـان متدرعاً بالاخـلاص ليسـتفيد مـن ذلـك الخبـرة والكفـاءة التـي تؤهلـه لتوجيـه أمتـه الوجهـة الصحيحـة.

يجـب علـى كل طالـب علـم أن يشـعر بالمسـئولية ويتنبـه للواجـب الملقـى علـى عاتقـه، وهـو أن وطنـه بحاجـة ماسـة لمـن يرفـع رأسـه عالياً بيـن الأمـم، وينشـر التعاليـم النافعـة لأبنائـه فـي دنياهـم واخرتهـم، ويقـف فـي وجـه الشـر والظـلام، ويأمـر بالمعـروف وينهـي عـن المنكـر، بقلمـه ولسـانه وتوجيهـه.

موضوع في الربا

قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون. واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. صدق الله العظيم.

بحثنا في الربا وتحريمه في الدين السلامي ومضاره الاقتصادية والاجتماعية، ونبدأ أولاً بتعريف الربا فنقول: أصل الربا هو الزيادة من قول العرب: ربا الشيء إذا ازداد، والمراد به يدفع إليه وقت الأداء المعين اثنيعشر أو أكثر من ذلك مما يكون زائداً على ما أقرضه من المال. وكان أمراً أجارياً متسالماً على صحته عند الجاهلية متعاملاً به عندهم فقد كان صاحب المال يعرض إلى أجل معين بزيادة مشروطة معينة، واذا حل أجل الدين ولم يكن المدنين قادراً على وفائه يقول له المدين إما أن تقضى أو تزيد على الزيادة المقررة في المال وأزيد في الأجل، فيرضى المدين بالزيادة اضطراراً وبذلك يتضاعف الربا حتى تصير المئة آلافاً مؤلفة فيقوم على كاهل المدين مبلغ عظيم بدون أي مقابل من مال أو خبس أخذه من صاحب المال.

أما تحريم الربا فهو أمر متسالم عليه لاخلاف فيه، والآية الكريمة نهي صريح في التحريم فهي تخاطب المؤمنين بأن حكمهم إن كانوا محقين في إيمانهم صادقين في تدينهم أن يذروا مازاد على رئوس أموالهم فيقتصروا عليها (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين) فان لم ينتهوا عن ذلك فليستيقنوا أنهم

ليسوا بمؤمنين ولكنهم حرب على الله ورسوله، اي اعداء (فان لم تعقلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) فان تابوا من استحلال الربا والتعامل به فلهم رأس المال فقط بدون زيادة ما (وان تبتم فلكم رئوس اموالكم) (لا تظلمون) بأخذ الزيادة (ولا تظلمون) بالنقصان من رأس المال. وبعد أن تبين الآية الكريمة حكم الميسور القادر على دفع المال تنتقل إلى بيان حكم المعسر، فتحث على إمهال المعسر حيث يتمكن من اداء الدين (وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة).

ثم ترتفع الآية الكريمة بنفسية المسلم إلى مستوى عال المروءة والإنسانية والكرامة مفتحة بالتصدق بالعفو عمن لا يجد ما يدفع به دينه (وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون).

والأحاديث في النص على تحريم السنة الشريفة وعن أهل بيت العصمة عليهم السلام كثيرة منها أن الرسول الأعظم (ص) لعن في الربا خمسة كما جاء عن علي عليه السلام: آكله - وهو صاحب المال الذي اقرض بشرط الزيادة - ومؤكله - وهو الموفي - وشاهديه وكاتبه. لأن الكاتب والشاهدين أعانوا على ما نهى الله عنه.

وقال أمير المؤمنين (ع): إذا أراد الله بقرية هلاكاً ظهر فيهم الربا. وقال الربا سبعون باباً أهونها عند الله كالذي ينكح أمه. وقال أبو عبدالله جعفر الصادق عليه السلام: ودرهم بأعظم عند الله من سبعين زينة كلها بذات محرم في بيت الله الحرام.

وقال النبي (ص): من أكل الربا ملأ الله بطنه من نار جهنم بقدر ما أكل وان اكتسب منه لم يقبل الله منه شيئا من عمله ولم يزل في لعنة الله وملائكته ما كان عنده قيراط واحد. وقال علي (ع): أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده في الوزر سواء.

إن هـذا التشـديد فـي تحريـم المعامـلات الربويـة ليـدل دلالـة كاملـة علـى أن الربـا منكـر اقتصـادي ومـرض فتـاك بالمجتمـع لمـا فيـه مـن آثـار وخيمـة وأضـرار اجتماعيـة واقتصاديـة تـؤدي بالأمـة إلـى التلاشـي والانهيـار، وإليـك بعـض مـا فيـه مـن الأثـر فـي الحيـاة الاجتماعيـة.

يفيـد علمـاء الاجتمـاع بـأن الربـا أكبـر جريمـة اجتماعيـة وأنـه مجـاف تمامـاً للعناصـر الأخلاقيـة وأن أعظـم معـول هـدَّام فـي الكيـان الإجتماعـي وأنـه قائـم علـى المعاكسـة الصريحـة للإسـلام فـي مبادئـه وأهدافـه.. فـإن أسـمى هـدف للإسـلام فـي مبادئـه السـامية هـو إيجـاد الـروح الأخويـة الصادقـة وخلـق نظـام التكافـل الاجتماعـي وتأكيـد الروابـط والصـلات بيـن أفـراد الأمـة وأشـاعة المـودة بينهـا. كمـا أن المـال فـي نظـر الإسـلام فـي يـد صاحبـه بحسـاب الوديعـة أو الأمانـة وهـو أميـن ونائـب فـي الإشـراف عليهـا قـال تعالـى: «وأنفقـوا ممـا جعلكـم مسـتخلفين فيـه»

وقـال تعالـى: (وآتوهـم مـن مـال اللـه الـذي آتاكـم) (وأنفقـوا ممـا رزقناكـم مـن قبـل أن يأتـي أحدكـم المـوت).

أمـا الربـا فإنـه يخلـق مـن المجتمـع طبقـة مترفـة فتتضخـم عندهـا الأمـوال لا عـن طريـق العمـل والكـدح وإنمـا عـن طريـق أن تعيـش هـذه الطبقـة علـى حسـاب الآخريـن وتحقـق جميـع رغباتهـا وشـهواتها وتسـتبد بمصالـح الضعفـاء والفقـراء وتعتـدي علـى كرامـات النـاس، ويترتـب علـى هـذا إشـاعة الحقـد والحسـد والتنافـر بيـن أفـراد الأمـة فتتفـكك الروابـط الإجتماعيـة فتضعـف الأمـة فـي واقعهـا وتتضعضـع فـي حياتهـا ويتمكـن مـن الغلبـة عليهـا اعداؤهـا.

إن إدارة الإسـلام تسـتهدف تقويـم الأمـة بالبـذل والتعـاون والتكافـل وتقويتهـا وتصميـم بنائهـا لتكـون فـي حياتهـا قويـة الكيـان مرهوبـة الجانـب.

ويشبّه أهل علم الاجتماع المجتمع الواحد بجسم الإنسان، هذا الجسم الذي تشترك في إعداده وتكوينه عدة خلايا حية. فالإنسان سليم الجسم مادامت الخلايا الجسمية سليمة صحية تقوم كل خلية بأداء وظيفتها باعتدال. إما كان بعضها يعمل على نحو غير طبيعي على حساب بقية الخلايا كمرض السرطان - مثلاً - فإن الإنسان لابد وأن يتلاشى وتنهدم حياته، فالمعاملات الربوية تفعل المجتمع مثل السرطان في الجسم حيث توجب التضخم المالي فيقضي على الضمير الأخلاقي، وذالك لا يلتئم مع الإسلام الذي يرعى في تشريعاته ومخططاته مصلحة الفرد والمجتمع.

إن الإسلام يحث على البذل والانفاق وقضاء الحاجة ويتوعد المسلمين بالجزاء العاجل والآجل قال تعالى: (وما تنفقوا من شيء يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)

أما المرابي فإنه يعتقد بأن القرض بدون مقابل خسارة وتجميد للمال، ويرى أنه إذا أتفق شيئاً من ماله فقد ذهب إلى غير رجعه، وإنما الربح والفائدة في الربا لكن الإسلام يقول: (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) ومحق الربا هو إهلاك المال الذي يكون فيه، وإعادتها إلى صاحبها مضاعفة فيثمر المال بذلك قال رسول الله (ص): ان الله يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه ويربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد).

إما المرابي فإنه يستغل حاجة أخيه ويثرى على حسابه حيث يتضاعف المبلغ كلما كان المدين عاجزاً عن تسديد الدين في أجله المضروب فيتأخر إلى أجل آخر بزيادة، وإذا شعر المرابي بعجز المدين

الكلي عن تسديد الدين استأسد وجرد المدين من جميع ما يملك وعليك أن تقدر ما يجره هذا التعامل من فوضى وحقد وفتنة اجتماعية.

قال أبوعبدالله الصادق (ع): «إنما حرّم الله عزوجل الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف قرضاً او رفداً»

وانظر إلى ما في الربا من أثر في الحياة الاقتصادية: يرشد أهل علم الاقتصاد إلى أن الربا يسبب شل الحركة الاقتصادية حيث يحصر الثروة عند فريق من الناس، تبنى سعادة هذا الفريق على شقاء الآخرين فيشيع الفقر والبؤس بين الناس وتثقل المشاعر الإنسانية وتضعف الروح المعنوية في الأمة ولهذا السبب اعتبر الربا منكراً اقتصادياً.

ويكتب علماء الاقتصاد الاسلامي بأن الربا ركيزة خطيرة للرأسمالية البغيضة ووسيلة فعالة للتدخل الأجنبي. فقد فتحت دول الشرق أبوابها للمرابين الأجانب فما هي إلا سنوات معدودة حتى تربت الثروة بل انحصرت في ايدي الاجانب حتى إذا فاقت الحكومات وأرادت الذود عن ثروة بلدانها وأموال مواطنيها استعدى أولئك الأجانب عليها دولهم فدخلت باسم حماية رعاياها وبهذا الطريق تغلغلت في البلاد فراحت تستثمر في مرافقها.

إن الإسلام متكفل لأبنائه بالعزة والمنعة والقوة إن تمسكوا بما جاء به من أخلاق سامية وتعاليم رفيعة. إنه ضامن لهم إن هم اتصفوا بما فيه من عدل وإنصاف وتعاون وتضامن وتكافل وتسامح أن يأكلوا من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم قال تعالى: «وان لواستقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً»

إن الطريقة الإسلامية لهي منبع العزة والكرامة وسبيل النجاح في شتى مجالات الحياة، وإن من يعمل ويجتهد باي وجه كان في حمل الأمة على الطريقة وإرشادها إلى الاخذ بها لهو المصلح الحقيقي والرجل الديني الحق الرائد الذي لم يكذب أهله ولا قومه، وإن الرجل الذي يجب على الأمة تعظيمه واتباعه وتأييده، لأنه لا يدعو إلى نفسه ولا يستهدف منصباً ولا مادة، وانما يستهدف تقويم المجتمع وإصلاح الأمة والانتصار للحق

مولد الإمام الأعظم
أمير المؤمنين علي عليه السلام

نعطّر هذا الحفل الكريم المنعقد بهذه المناسبة السامية الكبرى بنبذة يسيرة مما يتعلق ببطل الإسلام والمسلمين وخليفة الرسول بلا فصل أمير المؤمنين عليه السلام.

ولادته

كان مولده عليه السلام بمكة المكرمة في جوف الكعبة على الرخامة أو البلاطة الحمراء يوم الجمعة وهو اليوم الثالث عشر من شهر رجب بعد ثلاثين سنة من عام الفيل، وولادته داخل البيت من أجلّ مراتب الكرامة وأجلى إشارات العظمة، ومما اختص به الإمام الأعظم (ع) فلم يولد في البيت الحرام أحد سواه قبله ولا بعده. وقضية الولادة داخل الكعبة كما يقول السيد هاشم التوبلي البحراني في (غاية المرام) قد بلغت حدّ التواتر وهي معلومة عند الخاصة والعامة. ولنتساءل: هل شرّف علياً مولده في الكعبة؟ قال المتقدمون من المؤرخين عبارتهم الشهيرة: (ولد في البيت إكراماً من الله سبحانه له وإجلالاً لمحله في التعظيم) وقال المتأخرون أو أهل التأليف الحديث: (إن فاطمة بنت أسد وُلدت ببيت الله الحقيقي في بيته الصوري (1) فالشرف للبيت بأمير المؤمنين وعلي هو بيت الله الأعظم وقلبه عامر بعظمة الله والعبودية الكاملة له).

وقال شاعر معاصر:

تشرف البيت لا المولود فاعتبروا
ذوي العقول فهذي عبرة العبرِ

لعلنا نجد في ولادة هذا الإمام العظيم في بيت الله الحرام نكتة ومعنىً دقيقاً، هو أن المسلم بوسعه أن يجعل قلبه بيتاً لله تعالى إذا دخل فيه اسم علي وحبه وولائه.

أبواه:

أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف المؤمنة بالله المعتقدة برسول الله (ص)، وأبوه أبوطالب عبدمناف بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف المؤمن بربه والناصر لنبيه والفادي له بنفسه ووَلده كما يتكفل بذلك التاريخ الصحيح السليم من الأيدي الأثيمة والأقلام المأجورة، وكما يجده الباحث جلياً صريحاً بدون عناء وكلفة شريطة التحرر من العاطفة البغيضة والعصبية الهوجاء (2). والإمام علي (ع) هاشمي ولد من هاشميين أو ولده هاشم مرتين.

وقد قال بعض المؤرخين في هذا كلمة وقلده بعض آخر وهي (وكان علي أول هاشمي وُلد من هاشميين) وأضاف بعضهم (في الإسلام) والأولى والأصح أن تكون الكلمة كما قالها الشهيد (ره) في الدروس: (وهو وإخوته أول هاشمي وُلد بين هاشميين) وكما قالها الشيخ المفيد (ره): (وكان أمير المؤمنين وإخوته أول من ولده هاشم مرتين) فإن إخوة علي: طالب وعقيل وجعفر وأم هاني وهي فاختة كلهم لأب وأم وهم أكبر منه وقد وُلدوا قبله. أما من قال (في الإسلام) فغير صحيح أيضاً فإنه إن كان يقصد بعد ولادة الرسول فإخوة علي وُلدوا بعدها وإن كان يقصد بعد البعثة فلا يصح تاريخياً فإن الولادة قبل البعثة بعشر أو اثني عشرة سنة.

صورة الولادة بأوجز تعبير: تم لفاطمة بنت أسد تسعة أشهر وصادف يوم التمام كونها عند الكعبة وهناك أخذها الطلق وإنها

لأحرج ساعة بالمرأة تمرّ بها في الحياة. ومما يضاعف حراجة الموقف وشدة الأمر كون فاطمة في هذا الحال بين الناس وعلى غير استعداد لكنها لجأت إلى الله فرفعت بطرفها السماء قائلة: ربِّ إني مؤمنة بك وبما جاء به من عندك الرسول فأسألك بحقِ هذا البيت ومن بناه وبحق الجنين الذي في أحشائي الذي يكلمني ويؤنسني بحديثه لما يسّرت عليّ ولادتي. وفي نفس اللحظة انفتح البيت من ظهره ودخلت فيه فاطمة والناس ينظرون متعجبين فغابت عن الأبصار ثم عادت فتحة الجدار إلى حالها الأول بإذن الله، قال العباس بن عبدالمطلب ويزيد بن قعنب وكانا حاضرين: (رمنا فتح الباب لتدخل إليها بعض نسائها فلم ينفتح فعلمنا أن ذلك أمراً من الله تعالى) وشاع الخبر في مكة وتحدث الناس بذلك في أسواقهم ومحافلهم والمخدرات في خدورهن. قال الشاعر المعاصر مصوراً ساعة الولادة:

أتت إلى البيت فانشق الجدار لها
وعاد بعد ولوجٍ غير منفطرِ
وجاءت الحور والأملاك حاملة
ما لم تكن مثلت يوماً إلى بصرِ
فواكهاً وعطوراتٍ فحينئذٍ
على الرخامة كانت بزغة القمرِ

وعلى هذا الأساس يجب أن يكون إحياؤنا لهذه الذكرى العظيمة واحتفالنا بها قائماً على أساس الائتمار بأوامر أبي الحسن والانتهاء بنواهيه لا لقلقة لسان وأعمال جوفاء، يجب أن نجدد بإحياء هذه الذكرى العهد مع صاحب العهد وخليفة النبي الهادي (ص) في أن لا نخرج عن طاعته في كبيرة ولا صغيرة وأن نكون معادين لأعدائه موالين لأوليائه متصفين بأوصافه وأخلاقه وأن نمتثل ونطبق حيث

نسمعه يقول: (أمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقربا أجلاً ولن يقطعا رزقاً إنّ الأمر ينزل من السماء لكل نفسبما قدّر الله لها من زيادة أو نقصان).

ثم إذا كنا نردد حديث (أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة) ونعترف له بالأبوّة فلنربأ بأنفسنا عن عقوقه وعما لا يرضاه ولنقتدِ بالقدوة الصالحة ولنتأسّ بالأسوة الحسنة ابنه البار الحق حسين الرحمة الذي أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ووقف في وجه الباطل فادياً دينه بولده وإخوته وأصحابه وبناء أخيه وأطفاله ونفسه مخاطباً ربه:

هذي رجالي في رضاك ذبائح
ما بين منحور وبين طعينِ
إن كان دين محمد لم يستقم
إلا بقتلي يا سيوف خذيني
وعليّ أن أسعى إليك مقطراً
فوق الثرى وعليك أن ترضيني
ورضاي غفران الذنوب لشيعة
أودعتها الحسنى وأنت ضميني